مزيل اللبس

في مسألتي

شق القمر و ردّ الشمس

تأليف

السيد محمدمهدي السيد حسن

الموسوي الخرسان

عفي عنه

مكتبة الروضة الحيدرية

العراق ـ النجف الأشرف ـ العتبة العلوية المقدسة

هاتف: ٣٣٤٤٨٥

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله ربّ العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، وصلواته التامة الدائمة على خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الأئمة الهداة المهديين الميامين، ورضوانه عن الصحابة المهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ولعنته الدائمة على المشكّكين بآياته في معجزاته و كراماته لأنبيائه وأوليائه من العالمين .

وبعد:

فهذه سطور كتبتها استجابة لحاجة في نفس يعقوب قضاها، ردّاً لعادية المشكّكين في معجزتي النبي الصادق الأمين(صلى الله عليه وآله) في مسألتي انشقاق القمر بمكة المكرمة ما قبل الهجرة تصديقاً لنبوته، ثم ردّ الشمس في المدينة المنوّرة بعد الهجرة، بفضل دعائه وكرامة لوصيه ووالد خلفائه، ثم من بعد عهده(صلى الله عليه وآله) ردّت الشمس مرة ثانية، لابن عمّه أمير المؤمنين(عليه السلام)، وهي تعدّ في ردّها ثانية أيضاً معجزة للنبي(صلى الله عليه وآله)، لأنّها بفضل دعاء وصيّه، فهي كرامة له كما هي معجزة لابن عمّه، فيها تحقيق وصايته ما دامت علاقة التضايف بينهما ـ ما زالت ولم تزل ولن تزال ـ قائمة .

فعليّ(صلى الله عليه وآله) هو نفس رسول الله(صلى الله عليه وآله (بحكم آية المباهلة (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(١.)

وعليّ(صلى الله عليه وآله) من النبي(صلى الله عليه وآله) والنبي(صلى الله عليه وآله) من عليّ(صلى الله عليه وآله) بحكم قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): «علي منّي وأنا منه، ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو علي»(٢.(

وعليّ(صلى الله عليه وآله)من النبي(صلى الله عليه وآله) والنبي(صلى الله عليه وآله) من عليّ (عليه السلام) وجبرئيل (ع) منهما كما في حديث وقعة أحد حين قُتَل عليّ (عليه السلام) أصحاب الألوية فقال جبرئيل (صلى الله عليه وآله): «يا محمد إنّ هذه لهي المواساة، فقال(صلى الله عليه وآله) له: إنّه منّي وأنا منه، قال جبرئيل(صلى الله عليه وآله): وأنا منكما يا رسول الله»(٣.(

وعليّ (عليه السلام) من النبي(صلى الله عليه وآله) والنبي منه بحكم قوله(صلى الله عليه وآله) لبريدة وقد جاء يشتكيه فقال: «يا بريده لا تقع في علي، علي منّي وأنا منه، وهو وليّكم بعدي»(٤. (

وحيث انّ المعجزات تثيرها التحدّيات، وهذا ما سيأتي الحديث عنه في مجاله إن شاء الله تعالى، وحيث أنّ المشركين الأوائل لم يذعنوا بالتصديق في مسألة شق القمر، فكذلك المشكّكين الأواخر من الزوامل خالفهم التوفيق وما حالفهم، فكانوا بئس الخلف لأولئك السلف، فهم كالذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، فلئن اعترفوا للنبي(صلى الله عليه وآله) بالنبوة لكنّهم لم يذعنوا للوصيّ بالكرامة فضلاً عن المعجزة، وهؤلاء هم نفس النواصب الشُمس، الذين إن صدقوا بشق القمر غير أنّهم أبوا التصديق بردّ الشمس.

ولم يكتفوا بذلك بل أثاروا الشبهات والشكوك بغير حجة مقبولة، بل هي أفائك مرذولة، وما ذلك إلّا لأنّها - مسألة ردّ الشمس في المرتين - تعدّ من جملة الكرامات التي تعلن بفضل الإمام أمير المؤمنين (صلى الله عليه وآله) وكرامته على الله سبحانه، وهذا ما يسخن عيون النُصّاب، فأثاروا الشك والإرتياب لدى الأغرار والأعراب، ولفّوا الفضيلة بالتعتيم والضباب، وما دروا أنّ الشمس تبقى منيرة وإن جلّلها السحاب.

فرأيت أنّ الواجب عليَّ بيان ما سنحت به الفرصة من عرض يكشف عن أولئك النفر وما عندهم من أوهام، ما زالت تخفى الإجابة عليها عند العوام، بالرغم من كثرة ما كتبه الأعلام ودبّجته الأقلام .

فلعلّ وعسى أن أكون في كتابة هذه السطور ممّن يهدي به الله رجلاً واحداً فذلك، خير لي ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، كما هو مضمون الحديث النبوي الشريف(٥)، فإن وفّقت في ذلك وأصبت فهو أقصى المنى، وإن تكن الأخرى فذلك مبلغ علمي، وفوق كل ذي علم عليم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب، فإنّه نعم المجيب والمثيب.

وما يزال البحث يستدعي مزيداً من التفكير ومزيداً من العمل، لأنّه أكبر من هذا الجهد المتواضع مهما بذلت فيه من مجهود، وإنّما هو محاولة جادّة عسى أن تكون بذرة تثمر يانعاً نافعاً، من جهد الآخرين ممن وهبهم الله تعالى عقلاً كاملاً ولبّاً راجحاً، فإنّ الحياة بخير ما دام التعاون يعمر مجالاتها مع بذل الجهد وحسن النية والإخلاص في العمل . والله ولي التوفيق.

شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٥هـ

الراجي عفو المنّان

محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان

عفي عنه

ماذا سنبحث؟

ولقد رتّبت مطالب هذه الرسالة على النحو التالي:

تمهيد، ثم ثلاثة أبواب، ثم الخاتمة مسك الختام، وسوف أستعرض بعون الله سبحانه وتعالى الأبحاث التالية:

أبحث في التمهيد عن معرفة الشمس والقمر من خلال آي الذكر الحكيم، وانّهما من الآيات اللاتي تتغير عن مسارها ومدارها، ويجريان مجرى سائر الآيات في خضوعهما لخرق القوانين الطبيعية الكونية بإرادة الخالق المبدئ والمعيد.

وأبحث في الباب الأول: ذكر المنكرين للمعجزتين ـ انشقاق القمر وردّ الشمس مرّتين ـ من خلال ثلاثة فصول :

الفصل الأول: في معرفة هُوِيَّةِ المنكرين، وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في أسماء المنكرين للمعجزات جملةً وتفصيلاً، إلّا القرآن المجيد .

المبحث الثاني: في أسماء المنكرين لمعجزة شقّ القمر من الأولين والآخرين وماذا عندهم؟

المبحث الثالث: في أسماء المنكرين لمعجزة ردّ الشمس من خلال مسألتين :

المسألة الأولى في أسماء المنكرين لردها على العهد النبوي الشريف .

المسألة الثانية في أسماء المنكرين لردها على العهد العلوي المنيف .

الفصل الثاني: وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: في معنى الإعجاز وما هي المعجزة ؟

المبحث الثاني: ما هو الفرق بين المعجزة وبين الكرامة ؟

المبحث الثالث: في هل السحر والشعبذة يساوقان الإعجاز ؟

الفصل الثالث: في إمكانيّة خرق القوانين الطبيعية الكونية، والشواهد على ذلك دون أن يلحق بالكون الفساد.

وأبحث في الباب الثاني: في إثبات معجزة انشقاق القمر من خلال دليل الإثبات برواية الأثبات.

وأبحث في الباب الثالث المسائل التالية :

أولاً ماذا عن ردّ الشمس امكاناً ؟

ثانياً ماذا عن ردَّ الشمس وقوعاً في الأمم السالفة ؟

ثالثاً الأوصياء الثلاثة الذين ردت لهم الشمس:

الأول: سليمان بن داود وصي أبيه داود(عليهما السلام. (

الثاني: يوشع بن نون وصي موسى (عليهم السلام . (

الثالث: علي بن أبي طالب وصي محمد صلوات الله عليهما وآلهما وسلم، وقد ردّت له(صلى الله عليه وآله) مرَّتين.

المرّة الأولى بالصهباء في العهد النبوي الشريف، و نبحث هناك المسائل التالية :

المسألة الأُولى: من روى ذلك من الصحابة .

المسألة الثانية: هل انّ ابن عباس روى حديث ردّ الشمس.

المسألة الثالثة: تلون أبي هريرة في روايته حديث ردّ الشمس.

المسألة الرابعة: من هم نفاة الحديث، وماذا قالوا؟

المسألة الخامسة: تصحيح الحديث لدى المحدثين.

المسألة السادسة: المؤلّفون في الحديث .

المسألة السابعة: مصادر الحديث في التراث الإسلامي الشيعي والسنّي.

المسألة الثامنة: أهازيج الشعراء منذ القرون الأولى.

المرّة الثانية ببابل بعد العهد النبوي الشريف، ونبحث المسائل التالية:

المسألة الأُولى: من ذكره من علماء الإسلام .

المسألة الثانية: زيغ البخاري في الجامع الصحيح عن التصريح مع ذكره الحديث بالتلميح ؟؟

المسألة الثالثة: مسجد الشمس في بابل-الحلة- معلم قائم وشاهد.

المسألة الرابعة: في شواهد شعرية لهذه المرّة .

وأذكر في الخاتمة مطارفة أدبية بين عالَمينِ عَلمين شيعيّ وسنيّ حول معجزة ردّ الشمس للإمام ببابل، جديرة بأن تكون هي مسك الختام، نسأل الله تعالى التوفيق لبلوغ المرام بالتمام .

*** * ***

تمهيد

خير بداية أستفتح بها رسالتي في البحث حول مسألتي انشقاق القمر وردّ الشمس، هي الآيات القرآنية التي تعرّفنا بالشمس والقمر معرفة تقرّبنا من إدراك معنى الإعجاز المتعلّق بهما، وأنّهما كسائر آيات الله سبحانه وتعالى وما أكثرها :

)وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ)(٦.(

لقد ورد ذكرهما في أكثر من عشرين آية في القرآن المجيد مجتمعين ومنفردين، كلّها دالة على الخالق البارئ المصوّر وهو المبدئ والمعيد.

ومن تفكّر في عظيم المخلوقات استبصر فهماً وعلماً في عظمة الخالق جل اسمه وعظم شأنه، وأنّه القادر على كل شيء، وسأتلو بعض تلكم الآيات التي ذكر فيها الشمس والقمر أو أحدهما في دلالتها على تغير مجراهما ومدارهما، مشفوعة بشذرات نبويّة ونفحات إماميّة فيما يوضح المرام، ويعيننا على فهم ذلك في المقام، فكم للرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) من غرر الحكم ودرر الكلم، وللإمام (صلى الله عليه وآله) في نهج البلاغة ممّا نستوحي منه معاني القرآن، ولا عجب فهما مع القرآن والقرآن معهما كما في الحديث النبوي الشريف بالنسبة للإمام (صلى الله عليه وآله)(٧)، والآن إلى تلاوة بعض تلكم الآيات البينات.

-1فقد قال سبحانه وتعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِهِ أَنَ ءآتَهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّـيَ الَّـذِي يُـحْيِ وَيُـمِيتُ قَـالَ أَنَـاْ أُحْـيِ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِـالـشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الَّظالِمِينَ)(٨. (

-2وقال سبحانه وتعالى في حديث إبراهيم (صلى الله عليه وآله) وبدء إظهار دعوته إلى توحيد الله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لآ أُحِبُّ الأفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَآ رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ * فَلَمَّآ رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةٍ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ

أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمشْرِكِينَ)(٩. (

-3وقال سبحانه و تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الأَيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(١٠. (

-4وقال سبحانه و تعالى: (اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمّىً يُدَبِرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الأَيَتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)(١١. (

-5وقال سبحانه وتعالى: (وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَاهُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(١٢. (

-6وقال سبحانه وتعالى: (وَمِنْ ءَايَتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا َتَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلقَمَرِ وَ اسْجُدُواْ للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(١٣. (

-7وقال سبحانه وتعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً)(١٤.(

-8وقال سبحانه وتعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ)(١٥. (

-9وقال سبحانه وتعالى: (أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً)(١٦.(

-10وقال سبحانه وتعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَوَتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ)(١٧.(

هذه عشر آيات كريمات من القرآن المجيد تضمّنت تعريف الإنسان بوحدانيّة الخالق البارئ المصور من خلال بعض مخلوقاته التي تجلّت فيها عظمة قدرته وبليغ صنعه، فجلّت الآؤه وعظمت نعماؤه.

وكانت الشمس والقمر من جملة تلكم المخلوقات اللاتي تخضع في مجراها ومرساها لحكم الواحد القدير، حتى في خرق القوانين الطبيعية الكونية كما يحسبها الإنسان، فإنّ الله سبحانه بقدرته يغيّر ما يشاء كيف يشاء إذا اقتضت الحكمة الإلهية ذلك، لغاية من الغايات، ولله خرق العادات، كإظهار معجزة أو كرامة لنبي من أنبيائه أو ولي من أوليائه، أو تخويفاً لأعدائه (إِذَآ أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ)(١٨).

وقال سبحانه وتعالى: (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالأَيَتِ إِلآ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالأَيَتِ إِلا تَخْوِيفاً)(١٩).

و قال سبحانه وتعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَينشئ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)(٢٠).

فالشمس و القمر من بعض آيات الله سبحانه و تعالى، وما يجري فيهما وعليهما إنّما هو بأمر من الله تعالى، فالكسوف للشمس، والخسوف للقمر، لا يحدثان لموت أحد ولا لحياته ولا يدلّان على سوءَ التقدير أو التدبير إلا بتقدير اللطيف الخبير، فقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) وقد صلّى بالناس صلاة الكسوف وقد أطال في صلاته ثم انصرف وقد تجلت الشمس فقال: «إنّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ اللهِ لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله ...»(٢١ .).

وقال أمير المؤمنين(عليه السلام) في خطبة الأشباح: «جعلَ شمسها آيةً مبصرةً لنهارها، وقمرها آيةً ممحوّةً من ليلها، فأجراهما في مناقل مجراهما، وقدّر سيرهما في مدارج درَجَها، ليُميّز بين الليل والنهار بهما، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»(٢٢).

وقال أيضاً عنهما: «والشمسُ والقمرُ دائبان في مرضاته ..»(٢٣).

إلى غير ذلك من أقواله(صلى الله عليه وآله) في نهج البلاغة وغيره.

ومن نافلة القول الإطالة في إثبات وحدانية الخالق وتصرّفه في مخلوقاته كيف يشاء، والشمس والقمر من بعض آياته، كما قال أبو العتاهية في مشهور أبياته(٢٤ :(

فوا عجباً كيف يُعصى الإلـه | أم كـيف يجحدهُ الجاحد؟

ولله فـي كـل تـحـــريـكـة | وفي كـل تسكينـة شاهـد

وفـي كـــل شـــيء لـــه آيـــة | تـدل علـى أنـــه واحـــد

* * *

الهوامش

1- راجع كتاب علي إمام البررة ١: ٤٢٥ ستجد من المصادر أكثر من مائة مصدر كلها من التراث السني، فما بالك بالتراث الشيعي .

2- راجع نفس المصدر ٢: ٨٠ ـ ٩٥ ستجد موارد الحديث سبعة، وتجد مصادر أكثر من ثمانين كلها من التراث السنّي، من بينها صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وصحيح ابن حبان، ومسند أحمد، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجة وغيرها فراجع واغتنم .

3- نفس المصدر الثاني.

4- نفس المصدر الثاني.

5- الكافي ٥: ٢٨، التهذيب ٦: ١٤١، مجمع البيان ٢. 75 :

- 6يوسف: ١٠٥.

- 7علي إمام البررة ١: ١٦٥.

- 8البقرة: ٢٥٨.

- 9الأنعام: ٧٥ ــ ٩٧.

- 10يونس: ٥.

- 11الرعد: ٢.

- 12يس: ٣٧ – ٤٠.

- 13فصلت: ٣٧.

- 14الفرقان: ٦١.

- 15القمر: ١ – ٢.

- 16نوح: ١٥ – ١٦.

- 17الأنبياء: ٣٠.

- 18الرعد: ١١.

- 19الإسراء: ٥٩.

- 20الرعد: ١٢ – ١٣.

- 21موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٣: ٨٧ عن أربعين مصدراً تقريباً.

- 22نهج البلاغة شرح محمد عبده ١: ١٦٦.

- 23نفس المصدر ا: ١٥٨.

- 24تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٤٥٣، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ٣٣٨، وتاج العروس ٩: ٢٩٨ (عته)، والكنى والألقاب للقمي ١: ١٢١ في ترجمة أبي العتاهية، غير أنّ ابن كثير في تفسيره١: ٢٦ في تفسير قوله تعالى) :رَبِّ الْعَالَمِينَ) في الفاتحة نسب الأول والثالث إلى ابن المعتز، والصحيح لأبي العتاهية، فالشعر بسلوكه أشبه، ولم يكن ابن المعتز في الشعر أنبه .

الباب الأول

في ذكر المنكرين للمعجزتين

انشقاق القمر وردّ الشمس مرّتين

والكلام في ذلك من خلال ثلاثة فصول:

إذ لا يخفى أنّ مسألتي شق القمر وردّ الشمس هما آيتان من واد واحد – كما يقولون – يشتركان في جهة الإعجاز بفعل خرق القوانين الطبيعية الكونيّة، وإن لم يكن التحدّي مرويّاً فيهما معاً، فقد رويَ ذلك في شق القمر، ولم يروَ في رد الشمس، على انّ التحدّي ليس شرطاً أجماعياً في صدور المعجزة كما سيأتي بيانه . ومهما يكن فقد كان موقف المسلمين قديماً وحديثاً من هاتين الآيتين مختلفاً، شأنهم في كثير من المسائل العقائدية و الفقهية بل وحتى التاريخية.

فثمة من ينفي فينكر وقوع المعجزات إلا القرآن، ومنهم أنكر آية شق القمر، ومنهم من ينفي ردّ الشمس كذلكَ، على تباين في وجهات النظر عندَ النافين المنكرين المستكبرين، ولابدّ لنا من كشف حالِهم ومقالِهم، و ردّ مزاعمهم التي تثار بين حين وآخر، لزرع الشك والارتياب في صحة وقوع الآيتين في قلوب السذّج من الناشئة الذين لم يستضيئوا بنور العلم.

ولا شكَ إنّ لكل ساقطة لاقطة، فلا مناصَ لنا من عرض آراء النافين ومناقشتها بما يسع المقام لكشف الرين عن قلوب الناشئة، إذ لا شكَ في الآيتين عند من محض الإيمان في قلبه، ورأى فيها من التكريم ما يفرض عليه التسليم.

أما أُولئك الذين في قلوبهم مرض فلهم آراؤهم، وعلينا أن نعرضها إجمالاً بعد معرفة هُوِيَّةِ أولئك المنكرين المستكبرين الذين جعلوا القرآن عضين ليعرفهم القارئ .

الفصل الأول

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :في أسماء المنكرين للمعجزة جملةً وتفصيلا إلا القرآن المجيد .

لابدّ لنا – ما دمنا مسلمين مؤمنين صادقين في إيماننا، ومحقّين في دعوتنا، وواثقين من أنفسنا – من وقفة إعلام جادّ وصادق نكشف بها زيف طائفة من المسلمين المخدوعين بأوهام المبشرين، الذين موّهوا عليهم بأنّ خرق القوانين والعادات ليس من العلم في شيء، واستغفلوهم عمّا يُراد لهم من سوء في عقائدهم، فغرّروا بهم باسم سلطان العقل، وتحكيم العقل، وهي كلمة حقٍ أريد بها باطل، أو أسيء فهمها.

فهم على حذر من المعجزات، ويميلون إلى عدم قبولها، فمنهم النظام، والجاحظ، وهشام بن عمرو الفوطي، وهؤلاء كلهم من المعتزلة وقد أنكروا معجزة شق القمر، وسيأتي الحديث عنهم في الباب الثاني .

والمعتزلة لهم مواقف مقبولة، وعند بعضهم مقالات مرذولة ولكن، هلمّ الخطب في بعض كتّاب العصر وليتهم كالمعتزلة، ولم يكونوا مهزلة، لقد تبعوا في مواقفهم ما وفد به عليهم الغزو الثقافي، فشايعوا من حيث لا يعلمون أعداء دينهم، بحجج موهومة واهية، لقد ذهب جلّ المنكرين لوقوع المعجزات من النبي(صلى الله عليه وآله) غير القرآن الكريم، متمسكين بأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) لم يصح له أيّ معجزة غير القرآن الذي أَذعن المشركون من قريش وغيرهم بأنّه معجزة، حيث تحدّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا، ولست في مقام بيان إعجاز القرآن، وهذا ما اختلف فيه من المسلمين اثنان .

إلّا إنّي أحببت أن أُنبّه على أنّ أقصى ما عند المنكرين من حجة في ذلك، أن قالوا: إنّ المعجزة لو أتى بها متحدّياً لوجب أن تأتي ثمارها من إيمان مَن تحدّاهم، خصوصاً إذا كانوا هم طلبوا منه تلك المعجزة، ولم يُحدّث التاريخ عن موقف واحد استجابوا له فيه، بل على العكس فقد حَدّثهم بمعجزة الإسراء والمعراج فَرَجع بعض من آمن به.

وجواب النقض بأنّ الوليد بن المغيرة من زعماء المشركين كان يسمع آيات الله ثم يولي مستكبراً، ومات على شِركِهِ لعنه الله، وكم له من شبيه.

وأما الردّ عليهم في غير النقض، فإسلام خلق من الناس عظيم يوم أُخبر(صلى الله عليه وآله) بأكل الأُرضة ما في صحيفة المقاطعة إلا مواضع بسم الله(عز وجل)(١)، ثم إنّ القرآن الكريم وهم أقرّوا بأنّه المعجزة الخالدة، جعل السبب في عدم استجابتهم لله في ذلك، لا لأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) لم يستجب لهم أولم تصدر منه معجزة تبهرهم، بل لأنّهم كانوا يطالبون بالآيات كفراً وعناداً وإمعاناً في الاستهزاء بالنبي(صلى الله عليه وآله) كما هو واضح في أسلوب طلبهم ونوع مطالبهم.

فالقرآن حكى عنهم حالهم بقوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاّ بَشَرًا رَسُولاً)(٢. (

ولو علم الله(عز وجل) فيهم خيراً لأجابهم إلى جميع ما طلبوا، ولكنّهم كما وصفهم تعالى في آية أُخرى، وهي قوله: (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)(٣. (

وشواهد هذا ما حدث في معجزة تكثير الطعام في بدء الدعوة مثلاً، فقال أبو لهب: سحركم محمد، وفي معجزة انشقاق القمر أيضاً قالوا سحركم محمد وهكذا و هكذا، وقد حكى تعالى قولهم: (وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)(٤) وقال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)(٥) وقال تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)(٦. (

ولقد ولع بعض الباحثين عن حياة الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله(، فصوّروه بإطناب كبشر عادي، وأكثروا من الاستشهاد بآيات تنفي الغلو فيه، نحو قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)(٧) ويكثرون من الاستشهاد بمثل قوله تعالى: (إ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللهِ)(٨) ونحو ذلك ثم هم وصفوه بالعبقرية، وبالبطولة، وبالقائد، حتى أكثروا من إصدار الكتب عنه بتلك الأسماء)عبقرية محمد) و (محمد القائد) و (محمد البطل) وأمثالها.

وهذه كلّها ممّا لا ينبغي أن تحلّ محلّ وصف محمد النبي والرسول،وما ذلك منهم إلّا لاستبعاده عن حقائق النبوة وآيات الوحي، ودلالة المعجزة الخارقة على صدقه والآية في تصديقه، فهم قلدوا المستشرقين الذين كادوا المسلمين من حيث لا يشعرون مثل جوستاف لوبون وغولدزيهر ولامنس وغيرهم ممن سمّموا أفكار طائفة من أناس تربّوا في مدارسهم، فكان من سوء حظهم أن صاروا ببغاوات يرددون ما يتلى عليهم، وقد خدعوا بزبرجة الألفاظ وبهرجة الألقاب في عصر النهضة العلمية، حيث هبت رياح الغرب في الشرق.

فكان من أُولئك المخدوعين في مصر - ومنها انتشرت السموم فهي مباءة الفساد باسم الثقافة العصرية - وفي بلاد الشام وغيرها طائفة من الكتاب، نذكر منهم على سبيل المثال محمد حسين هيكل، في كتابه (حياة محمد) ومحمد الغزالي في كتابه(فقه السيرة) ومحمد جميل بيهم في كتابه (فلسفة تاريخ محمد) فهؤلاء ناقشوا صدور الآيات والمعجزات للنبي(صلى الله عليه وآله) إلّا القرآن، فألحقوا باقي المعجزات بالأساطير، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم بالدين، حتى سمى لهم شبلي شمّيل: الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة(٩)، وأمثال هؤلاء في كتّاب المسلمين كثار وعُثار .

ومن الواضح انّ إنكارهم للمعجزات الخارقة الثابتة بالنقل المتواتر، دليل على عدم إيمانهم الكامل بمعنى النبوة التي هي من المعاني الغيبية التي لا تخضع للمقاييس المحسوسة، ولا تثبت لمدعيها من دون إعجاز خارق، فإنكار المعجزات الخارقة هو هدم لمعنى النبوة وسلبها عن النبي(صلى الله عليه وآله)، وقد تهرّبوا من وبال النتيجة، فصاروا يصفونه بالعبقرية وبالذكاء الحادّ وقوّة الإرادة. ...

وإلى القارئ ما قاله أحدهم وهو محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد (فهو في مقدمته للطبعة الثانية كشف عن مدى النقد اللاذع الذي لاقاهُ في طبعة كتابه الأُولى، وها هو في مقدمة الطبعة الثانية يترنح مبهوراً بمن ناصره على رأيه في إنكار المعجزات الخارقة، وأن ليس غير القرآن من معجزة للرسول(صلى الله عليه وآله(، وسمى الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده وآخرين ممن لا أطيل المقام بذكرهم.

فإلى ما قاله هيكل في كتابه (حياة محمد) قال: في صفحة ٥٤ من تقديم الطبعة الثانية: «ولو أنّنا عرضنا كثيراً من الأُمور التي ترويها كتب السيرة وكتب الحديث على ما في القرآن لما وسعنا إلا أن نأخذ برأي الأئمّة المدقّقين .

فقد كان أهل مكة يطلبون إلى النبي أن يجري ربّه على يديه المعجزات إذا أرادهم أن يصدّقوه،فنزل القرآن يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة، قال تعالى) :وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاّ بَشَرًا رَسُولاً)(١٠. (

وقال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمْ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)(١١) ولم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد إلّا القرآن الكريم .

هذا مع أنّه ذكر المعجزات التي جرت بإذن الله على أيدي من سبق محمداً من الرسل، كما أنّه جرى بالكثير ممّا أفاء الله على محمد وما وجّه إليه الخطاب فيه، وما ورد في الكتاب عن النبي العربي لا يخالف سنة الكون في شيء .

أمّا وذلك ما يجري به كتاب الله وما يقتضيه حديث رسول الله، فأيّ داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى، ويدعو طائفة منهم اليوم إلى إثبات خوارق مادية للنبي العربي ؟ إنمّا دعاهم إلى ذلك أنّهم تلوا ما جاء في القرآن عن معجزات من سبق محمداً من الرسل، فاعتقدوا أنّ هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدّقوا ما رويَ منها وإن لم يرد في القرآن، وظنّوا أنّها كلما ازداد عددها كانت أدلّ على هذا الكمال، وادّعى أن يزداد الناس إيماناً، ومقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله للناس كافة، ولم يبعثه إلى قومه وحدهم ليبيّن لهم .

لذلك أراد الله أن تكون معجزة محمد معجزة إنسانية عقلية، لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

هذه المعجزة هي القرآن، وهي أكبر المعجزات التي أذن الله بها، وقد أراد جلَ شأنه منها أن تثبت رسالة نبيه بالحجة البيّنة والدليل الدامغ، وأراد لدينه أن ينتصر بفضل منه في حياة رسوله، ليرى الناس في انتصاره قوة سلطانه، ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلة إلى إقناع من نزل الإسلام على رسوله بينهم لكانت ولذكرها في كتابه . لكن من الناس من لا يصدّقون إلا ما يقرّه العقل.

لذلك كانت الوسيلة إلى إقناع الناس كافّة برسالة محمد أوثق ما تكون اتصالاً بقلوبهم وعقولهم، فجعل القرآن، حجته البالغة، معجزة النبي الأُميّ إليهم، وجعل انتصار دينه وقوة الإيمان به آيتين من طريق الدليل اليقيني والإقناع الصادق، والدين الذي يقوم على هذا الأساس أدعى إلى أن يؤمن الناس جميعاً به على كرّ العصور، واختلاف الأُمم وتباين اللغات. «

وقال في صفحة ٥٦: «وإن كتب السيرة جميعاً لتذكر أنّ طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الإسراء، قد ارتدّت عن إيمانها حين ذكر النبي أنّ الله أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله . ولم يؤمن سراقة بن مالك بن جعشم لما تبع محمداً حين هجرته إلى المدينة ليأتي أهل مكة به حياً أو ميتاً طمعاً في مالهم، على رغم ما روت كتب السيرة من معجزة الله في سراقة وفي جواده، ولم يذكر لنا التاريخ أن مشركاً آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات كما آمن سحرة فرعون لما لقفت عصا موسى ما صنعوا .

ثم أنّ ما ورد في كتب السيرة والحديث عن المعجزات قد اختلف فيه أحياناً، وقد كان على الرغم من ثبوته في كتب الحديث موضع النقد أحيانا أُخرى، وقد أشرنا إلى مسألة الغرانيق في هذا التقديم وذكرناها مفصلة في الكتاب، وقصة شق الصدر قد وقع فيها الخلاف على ما روته حليمة ظئر النبي لأمه، كما وقع على الزمن الذي حدثت فيه من سنَ النبي، وما روت كتب السيرة وكتب الحديث عن قصة زيد وزينب مردود من أساسه للأسباب التي أبديناها عند الكلام عن هذه القصة أثناء الكتاب .

وقد وقع مثل هذا الخلاف على ما حدث في هذا مسيرة جيش العسرة إلى تبوك، فقد روى مسلم في صحيحه عن معاذ بن جبل أنّ النبي قال لمن سار معه إلى تبوك» :إنّكم ستأتون إن شاء الله غداً عين تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَ من مائها شيئاً حتى آتي، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبضّ بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله(صلى الله عليه وآله) هل مسستما من مائها شيئاً ؟ قالا: نعم، فسبّهما النبي(صلى الله عليه وآله) وقال لهما :ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء . قال: وغسل رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر ـ أو قال غزير، شك أبو علي أيهّما قال ـ حتى استقى الناس، ثم قال يُوشك يا معاذ إن طالت بكَ حياةٌ أن ترى ما ها هنا قد مليء جناناً»(١٢. (

فأما كتب السيرة فتروي قصة تبوك على صورة أخرى لا يرد فيها ذكر المعجزة، وإنّما تجري فيها الرواية على نحو غير ما ورد في صحيح مسلم . من ذلك ما رواه عنها ابن هشام إذ قال: قال ابن إسحاق: فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شَكَوا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) . فدعا رسول الله(صلى الله عليه وآله) فأرسل الله سبحانه السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء .

قال ابن إسحاق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن رجال من بني عبد الأشهل قال: قلت لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال :نعم! والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفي عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك، ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) حيث سار، فلما كان من أمر الماء بالحِجر ما كان ودعا رسول الله(صلى الله عليه وآله) حين دعا فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى تروّى الناس قالوا أقبلنا عليه نقول: ويحك ؟ هل بعد هذا شيء ؟ قال :سحابة مارّة .

وهذا الاختلاف على الوقائع يجعل تأكيدها والقطع بها أمراً غير ميسور في نظر العلم، ويقتضي من الذين يمحّصونها ألّا يقفوا عند القول الراجح والمرجوح وقوفاً لا يثبت إحدى الروايتين ولا

ينفي الأُخرى، وأقل ما يجب عليهم إذا لم تثبت الرواية عندهم أن يُغفلوها . فإذا عثر غيرهم من بعد على الأدلّة اليقينية عليها فذاك، وإلا بقيت غير ثابتة ثبوتاً علميا.«

هذا ما قاله في كتابه (حياة محمد) الطبعة الثانية سنة ١٣٥٤هجـ، ونترك للقارئ حكمه عليه، ولا يفوتني التنبيه على تغيير مواقفه في طبعتي كتابه(١٣(، ولم يكن وحيد عصره ولا فريد دهره في رأيه في المعجزات الخارقة للعادات، بل هناك آخرون سابقون عليه ولاحقون له ولكلِ ساقطة لاقطة، وذكرنا اسم رشيد رضا صاحب المنار.

ونضيف محمداً الغزالي حيث ذهب في كتابه فقه السيرة(١٤) إلى نفي وقوع ذلك، راجع ما كتبه بعنوان (النبي وخوارق العادات) فقد جاء فيه: « جرت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام - الخاصة والعامة - على قوانين الكون المعتادة، فلم تخرج - في جملتها - عن هذه السنن القائمة الدائمة ... ومن المحققين من يرى أنّ القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنّها خارق للعادة مقرون بالتحدّي، ولم يعرف هذا التحدّي إلّا بالقرآن، وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة، بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأُخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام، على أنّه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساده إيمانه بأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام أظلته غمامة، أو كلّمه جماد، والرجل الصالح لا يغمز مكانته إنكاره لهذه الخوارق ... فإن هذه البحوث ترجع إلى التقدير العلمي لأدلّة الأبحاث، والتقويم المحض لما في الوقائع نفسها من معان، وليس للخطأ والصواب فيها مساس بإيمان ... » إلى غير ذلك ممّا قاله بحجة وبغير حجة.

ونحن لا نقول بأنّ الإيمان بصدور المعجزات هو ميزان الثواب والعقاب، بل نقول بأنّ تكذيب صدورها من النبي(صلى الله عليه وآله) يستلزم تكذيبه فيما جاء به وأخبر عنه من غيب علّمه اللطيف الخبير .

وأعطف عليهم محمد جميل بيهم في كتابه (فلسفة تاريخ محمد) ولم يذكر مكان الطبع وأحسبه في بيروت، فقد ابتدأ الفصل الثاني عشر بعنوانه: على أيّ شيء قام دين محمد ؟ فقال :

»يخيّل لفئة من المسلمين أنّ الفوز الذي أحرزه النبي في معركة النضال ضد المشركين يعود إلى ما أجراه الله على يديه من المعجزات، وإنّ هذه المعجزات كان لها شأن، وأيّ شأن، في إقبال الناس على الإيمان برسالته ... ونحن نعالج هنا هذا الموضوع لنثبت أنّ الإسلام لم يقم على المعجزات ... « هل قام الإسلام على المعجزات ؟ عنوان جاء فيه :

»تحيط بالأنبياء والرسل هالة من التعظيم مشفوعة بالمحبة، درج المؤمنون بهم على تزويدها بمقدار كبير من أنباء المعجزات يتفق مع تعظيمهم لهم ومحبتهم، وكان بعض رجال الإيمان يجيزون لأنفسهم الأخذ بذلك التزويق بغية حمل الناس على الإيمان بذويهم من أصحاب الرسالة، على اعتبار أنّ الغاية تبرّر الواسطة، واستناداً إلى علمهم بأنّ عامة الشعوب هم كالأطفال يستطيبون السير بقدر ما فيها من عجائب وغرائب .

وقد اقتبس بعض المسلمين هذه الطريقة حينما تناول الأعاجم منهم تدوين التاريخ، ذلك بأنّ فريقاً من هؤلاء كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجرّدة عن الخوارق والمعجزات التي تحفل بها سيَر أنبيائهم في أديانهم السابقة، فراحوا ينسبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، ولم يشر إليها الحديث . وعلى ما روى كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم ص٢٦: «فإنّ معجزات الرسول بلغ عددها ٤٠٥٠ معجزة جمعت في مجلدين. «

ولما وضعوا سيرة مولد النبي استساغ بعض الفرس الذين أسلموا أن يزجّوا فيها تلك الخرافات التي كانت تحفل بها سيرة نبيّهم السابق زرادشت، فجاءت قصة المولد على شكل مليء بالخوارق التي لا تتفق مع مصادر الإسلام، ومليء بالسخائف التي لا تتلاءم مع عظمة محمد .

وقد قال محمد عبد الله السمّان في هذه المناسبة: «إنّه لمن دواعي الأسف أن يكون محمد هذا كل نصيبه اليوم من التقدير أن ترتفع عقائر المؤذّنين من فوق مآذنهم، ومحترفي التواشيح الدينية في إذاعاتهم وحفلاتهم لتتحدّث عن محمد ... كحيل العينين، أحمر الخدين، جميل الوجه، الذي ظلله الغمام، وكلّمته الغزالة، وحنّ إليه الجذع، وشكا إليه البعير، وسبّح له الحصى، ونبع الماء من بين أصابعه»(١٥ .(

والواقع أن ثِقات العلماء من المسلمين كابن رشد في كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة) أجمعوا على أنّ محمداً كان في دعوته إنّما يعتمد على الإقناع والإيمان، وكان كما وصفه حسين هيكل في

كتابه (حياة محمد) «حريصاً على أن يقدر المسلمون أنّه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه المعجزة غير القرآن» وأنكر هؤلاء الثِقات على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار .

وقد عالج هذا الموضوع الشيخ محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية) وقال عن محمد: «كان لا يعتمد على شيء في دعوته إلى الإيمان بالله ووحدانيته سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخلاف العادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة .«

وجرى محمد رشيد رضا في كتاب (الوحي) مجرى أُستاذه الشيخ محمد عبده وقال: «إنّ محمداً لم يدع أحداً من الناس، ولا أمة من الأمم، إلى الإيمان برسالته، بأن قدّم بين يدي دعواه خارقاً من الخوارق الأفعال، مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أُخرى .«..

وكان استناد هؤلاء الثِقات يقتصر على القرآن الذي بين أيدينا، وعلى الحديث الصحيح، وهما وحدهما المرجع في هذا الشأن والحكم، ففي القرآن آيات متعدّدة تشير إلى تكرار طلب المشركين من النبي أن يجري ربه على يديه المعجزات حتى يؤمنوا به، وفي الجواب على هذا التحدّي كان القرآن يرد عليهم:

)وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاّ بَشَرًا رَسُولاً)(١٦ . (

)وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ)(١٧ . (

)قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)(١٨ . (

وفي الحديث الشريف: «ما من الأنبياء نبي إلّا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثر تبعاً. «

وبعد هذا الكلام الصريح في الجواب على تحدّي المشركين في صدد طلب المعجزات، ألا يحق لنا أن نتساءل من أين جاؤا بـ (٤٠٥٠) معجزة نسبوها لمحمد ؟ ثم نتساءل من أين استقى واضعوا تلك السير النبوية الخوارق التي زجّوها فيها ؟

بلى إنّ هناك آية واحدة لمحمد أشار إليها القرآن في معرض طلبات المشركين المتكررة أن يأتيهم بالمعجزات، وهي تنزيل الكتاب عليه:

)وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)(١٩ . (

فبعد ما قرأناه من أقوال كتّاب المسلمين في إنكارهم لمعجزات الرسول جملة وتفصيلاً، فلا عجب لو رأينا كاتبا مسيحياً كالدكتور نظمي لوقا يذهب إلى ذلك في كتابه (محمد الرسالة والرسول) فيقول في ص٨٦ – ٨٧: «إنّ رسول الإسلام هو أول رسول بُعث إلى الناس،وانبرى لدعوتهم إلى دينه من غير مدد من المعجزات الخاطفة للأبصار الخالبة للأنظار، فقد أُريد للناس أن يشعروا أنّ رسولهم مثلهم حقاً وصدقاً كما جاء في سورة الكهف، لا يملك من الخوارق أكثر ممّا يملكون، وليس له من سلطان عليهم، وإنّما الأمر إليهم .. كي يكون اهتداؤهم نابعاً من قدراتهم البشرية، وعن إقناعهم الذاتي، بغير تأثير غريب عن معدن العقل والضمير ...»(٢٠. (

وقال في ص٨٨: «وفي يقيني أنّ تأييد حق بخارقة غير طبيعية مسألة لا تستساغ إلّا في حالات انحطاط العقل البشري، فهذا أشبه بالإحتيال على الطفل ليقبل الطعام الذي يقيم أوده، وهو حري أن يطلبه ويلجّ في طلبه لو أوتي الرشد .

كذلك العقل السويّ يجد امتهاناً له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى، فإنّ كل دعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها، فالحقيقة لآية نفسها ولا مراء في ذلك.«..

وقال في ص٩٠: «ولا أملك نفسي من الإعجاب أن أورد هنا ما قاله الإمام محمد عبده في مفتتح كتابه)الإسلام والنصرانية): فالإسلام في هذه الدعوة لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق العادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة آلهية.

وقد اتفق المسلمون إلّا قليلاً ممن لا يعتقد برأيهم فيه، على أنّ الإعتقاد بالله مقدّم على الإعتقاد بالنبوات، وأنّه لا يمكن الإيمان بالرسل إلّا بعد الإيمان بالله، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان بالله من كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة، فإنّه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلّا إذا صدّقت قبل ذلك بوجود الله، وبأنّه يجوز أن ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً، رحم الله الأُستاذ الإمام. «

أقول: هؤلاء النماذج من جملة الزبارج وإن كانوا هم الذين يتحملون وزر الناشئة المشككة، إلّا انّ لهم سلف فماذا عنهم؟

المبحث الثاني :في معرفة أسماء المنكرين لمعجزة شق القمر من الأولين والآخرين .

أما الذين أنكروا وقوع آية انشقاق القمر، بمكة وحملوا الآية في قوله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)(٢١) على كونه فيما بعد، فمنهم الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠هجـ، وعطاء المكي المتوفى سنة ١٣٥ هجـ والبلخي ؟ ولابدّ من التعريف بهؤلاء الثلاثة لتقييم موقفهم في إنكار وقوع آيةِ الانشقاق، ومبلغ حجتهم من الصحة .

فأما الأولان وهما الحسن البصري وعطاء المكّي فكلاهما من التابعين، وقد طعن العلماء في أخبارهما، حتى قال أحمد بن حنبل: «ليس في المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطاء، كانا يأخذان عن كل أحد » فما ظنك بآرائهما، وسيأتي مزيد عن ذلك إن شاء الله.

وأما ثالث القوم فذكرَ المفسرون بأنّه البلخي ولم يفصحوا عن اسمه، ولدى الفحص عن المعروفين من المفسرين بهذه النسبة، وجدنا أسماء أربعة كلّهم يلقّب بالبلخي:

أولهم مقاتل بن حيّان البلخي الخراز من تابعي التابعين، ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات ٢: ١١٠ وقال: روى عن... وعطاء بن أبي رباح... والحسن البصري... واتفقوا على توثيقه والثناء عليه ... (٢٢ .)

ثانيهم مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠ هجـ، وهذا ورد في ذمه الكثير حتى قال البخاري: مقاتل بن سليمان خراساني منكر الحديث سكتوا عنه، وقال السعدي عنه: كان دجّالاً جسوراً، سمعت أبا اليمان يقول: قدم هاهنا فلما أن صلّى الإمام أسند ظهره إلى القبلة قال: سلوني

عما دون العرش ـ وحُدثّتُ أنّه قال مثلها بمكة ـ فقام إليه رجل فقال: أَخبرني عن النملة أين أمعاؤها ؟ فسكت(٢٣).(

وذكره الداودي في طبقات المفسرين (٢٤) فقال: كذبّوه وهجروه، ورمي بالتجسيم، وهذا روى عن عطاء ومجاهد والسبيعي والزهري والضحاك بن مزاحم.

فهذا أحد الرجلين اللذين اسم كلٍ منهما مقاتل، وكل منهما منسوب)البلخي) فيا هل ترى من هو المقصود ؟ وأقرب احتمالاً أن يكون هو المراد بالبلخي ؟ وكل منهما يروي عن عطاء إلّا أنّ الأول يروي عن الحسن البصري فربما كان هو المراد، وإن وردَ مدحه على لسان مترجميه، وقد يكون هو الثاني لشهرته بالتفسير كما قال ابن أبي حاتم في تعريفه: هو صاحب التفسير والمناكير . وهو الأرجح عندي .

ثالثهم هو أبو زيد أحمد بن سهلٍ البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هجـ، وهذا الرجل تحامل عليه أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة(٢٥) بغير حقٍ وقد ذكره الداودي في طبقات المفسرين(٢٦)، فحكى عن النديم في الفهرست فقال: كان فاضلاً في علومٍ كثيرة، وكان يسلك طريق الفلاسفة، ويقال له: جاحظ زمانه، وكان يرمى بالإلحاد (؟!) يحكى عن أبي القاسم البلخي الذي ذكره أنّه قال: هذا رجلٌ مظلوم، وإنّما هو موحّد ـ يعني معتزلياً ـ وأنا أعرف به من غيري، وقد نشأنا معاً وقرأنا المنطق. ...

وذكروا له عدة كتب منها (عصمة الأنبياء) و (نظم القرآن) و (غريب القرآن(و (بيان أنّ سورة الحمد تنوب عن جميع القرآن) و (الحروف المقطعة في أوائل السور) و (كتاب في تفسير الفاتحة) و (قوارع القرآن) إلى غير ذلك من مؤلّفات تكذّب زعم رميه بالإلحاد .

ولم يذكر عنه شيء في إنكار وقوع شق القمر، بل على العكس من ذلك فقد ذُكِرَتْ معاجز النبي(صلى الله عليه وآله) في كتاب البدء والتاريخ المنسوب إليه(٢٧)، فقال: ثم كان انشقاق القمر، يقول الله(عز وجل): (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)(٢٨ . (

ثم غلبة الروم بقول الله(عز وجل): (آلم * غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ)(٢٩. (

وله كلام غير هذا في عدّة مواضع من الكتاب المشار إليه، غيرَ أنّ نسبة الكتاب إليه لا تصح لورود تواريخ في ضمن الكتاب من بعد سنة ٣٢٢ هـ التي أرّخوا فيها وفاة أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، ولعلّ الكتاب لمطهر بن طاهر المقدسي كما كتب على ظهره، ومهما تكن صحة النسبة وعدَمها، فإنّ البلخي المنسوب إليه القول بعدم صدور معجزة شق القمر ليس أحمد بن سهل هذا .

رابعهم عبد الله بن أحمد بن محمود أبو القاسم البلخي الحنفي، ويعرف بالكعبي عالم متكلّم رئيس أهل زمانه توفيَ سنة ٣١٩ هـ ، وله عدّة تصانيف ذكرها النديم في الفهرست، وابن خلكان في الوفيات، والخطيب في تاريخ بغداد وغيرهم، وهو ليس المنسوب إليه القول بإنكار وقوع شق القمر.

ثلاثة آخرون أنكروا ولم يُذكروا:

لئن كان الحسن وعطاء ومقاتل البلخي أنكروا وقوع انشقاق القمر بمكة، لكنهم لم ينكروا وقوعه بعد ذلك في يوم القيامة .

ولكن هلمّ الخطب في ثلاثة آخرين أنكروا ذلك جملة وتفصيلاً، وهؤلاء لم يذكرهم المفسرون، بل ذكرهم المتكلّمون وأصحاب المقالات والفرق عند ذكرهم، وهم :

أولهم إبراهيم بن سيار النظام توفيَ سنة٢٣١ هـ، من شيوخ المعتزلة، نسب إليه القول بذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه تثبيت دلائل النبوة وسيأتي كلامه في ذلك .

ثانيهم عمرو بن بحر الجاحظ توفيَ سنة٢٥٥هـ ، نسب إليه القول بذلك المرزوقي المتوفّى سنة٤٥٣ هـ في كتابه الأزمنة والأمكنة، وسيأتي كلامه في ذلك .

ثالثهم هشام بن عمرو الفوطي - معاصر المأمون العباسي - نسب إليه القول بذلك صديق حسن خان القنُوجي المتوفّى سنة١٣٠٧ هـ في كتابه خبيئة الأكوان(٣٠(، وسيأتي كلامه في ذلك .

فهؤلاء الثلاثة الذين عثرت على أسمائهم ممن أنكروا معجزة شق القمر، وكلّهم من المعتزلة مضافاً إلى الثلاثة السابقين، وثلاثة أيضاً من الآخرين ولعل لهم أتراباً وأضراباً، فلا نطيل الوقوف فعلاً عندهم، فمن وراء الجميع يوم الحساب .

المبحث الثالث :في أسماء المنكرين لمعجزة ردّ الشمس والكلام في مسألتين:

المسألة الأولى في أسماء المنكرين لردّها على العهد النبوي الشريف .

والمسألة الثانية في المنكرين لردها على العهد العلوي المنيف .

فالمسألة الأولى في المنكرين لردّ الشمس في أيام الرسول(صلى الله عليه وآله)، وهم فيما أحصيت ثمانية، وإنّ إنكار الأبناء الثمانية لكرامة ردّ الشمس هو الثابت والمحقق عندي، ولا غرابة من هؤلاء لأنّهم أُناس لم يستمرئوا طعم الإيمان من خلال حبُ الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) الذي قال فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله): حبّه من الإيمان وبغضه من النفاق(٣١) ولما أنكروا ردّ الشمس، عددناهم من النواصب الشُمس، وهؤلاء الأبناء الثمانية، هم التالية أسماؤهم :

-1ابن المديني المتوفى سنة٢٣٤ هجـ.

-2ابن فورك المتوفى ٤٤٦ هجـ.

-3ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٤٥٦ هجـ.

-4ابن عساكر الشافعي الشامي المتوفى سنة ٥٧٣ هجـ .

-5ابن الجوزي الحنبلي المتوفى سنة ٥٩٧ هجـ .

-6ابن تيمية الحراني الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٨ هجـ .

-7ابن قيم الجوزية الحنبلي المتوفى سنة ٧٦٧ هجـ.

-8ابن كثير الشامي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٤ هجـ .

هؤلاء هم أصحاب الشبهات والتشكيكات الذين وقفت على آرائهم في مسألة ردّ الشمس في العهد النبوي الشريف، فضلاً عن إنكارهم لها في العهد العلوي المنيف، فقد تبدت صفحاتهم السُّودُ عن نُصبهم وعنادهم، فسوّدوا صفحاتهم بمدادهم، إذ لم يستسيغوا أن يكون حديث ردّ الشمس وفيه كرامة للإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) أن يكون صحيحاً، فناقشوا في إسناده تارة وفي متنه

أُخرى، ولم يأتوا بالمفيد، وإنّما هو اجترار يتلمّظه القريب منهم من البعيد، وفي ذلك إنكار قدرة المبدئ والمعيد .

وإلى القارئ قبل ذكر أقوالهم ومعرفة أحوالهم، بما يسعه المجال، أن ننبّهه على أمر ذي بال، وهو أنّ ردّ الشمس في جوهره من سنخ آية شق القمر، فكلاهما من وادٍ واحد، فمن سلّم بتلك الآية فيجب عليه أن يذعن مسلّماً للآية الأُخرى، لأنّهما في حقيقتهما كانا معجزة للنبي(صلى الله عليه وآله)، فما صدر على عهده، ونزل الوحي السماوي بمدّه، فكذلك ما صدر من بعده، فهو صادر من وصيّه أمام جنده، وقد ثبتت وصايته، وصحت روايته، كما سيأتي تفصيل ذلك . والآن إلى مزيد من معرفة أولئك النفر المنكرين المستكبرين، فنقول :

أولهم علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح ... السعدي مولاهم البصري المعروف بابن المديني (ت ٢٣٤ هجـ) ذكره العقيلي في الضعفاء وقال: جنح إلى ابن أبي دؤاد والجهمية(٣٢) وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال(٣٣)، وتحامل على العقيلي في ذكره لابن المديني في كتابه ومع ذلك الدفاع المستميت عنه حكى في سير أعلام النبلاء قول الأصمعي لعلي بن المديني: والله يا علي لتتركن الإسلام وراء ظهرك(٣٤).(

أقول: (ويل لمن كفَّرهُ النمرود) إذا كان مثل الأصمعي الناصبي يقول مثل هذا القول لعلي بن المديني فما ظنّك به ... وحكى الذهبي خبر الرقعة التي ناولها ابن أبي دؤاد لابن المديني وقال: هذه طرحت في داري، فإذا فيها:

يا ابن المدينيّ الذي شُرعت له ... دنيا فجاد بدينه لينالها

ماذا دعاك إلى اعتقاد مقالة ... قد كان عندك كافراً من قالها

أمرٌ بدا لك رُشدَه فقبلتَه ... أم زهرةَ الدنيا أردت نوالها

فلقد عَهدتك لا أباً لك مرة ... صعب المقادة للتي تدعى لها

إن الحريب لَمَنْ يصابُ بدينهِ ... لا مَنْ يُرَزّى ناقةً وفصالَها(٣٥)

فهذا الرجل الذي كان مع ابن أبي دُؤاد وطعم من دنياه فطمع هو الآخر في دينه، وكلاهما من زمرة وعاظ السلاطين الذين كانوا مع المتوكل الناصبي المعلن بنصبه لعنه الله، لا يستغرب منه لو

قال: خمسة أحاديث يروونها ولا أصل لها عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) حديث: «لو صدق السائل ما أفلح من ردّه » وحديث: «لا وجع إلّا وجع العين، ولا غمّ إلّا غم الدين» وحديث: «أنّ الشمس ردّت لعليّ بن أبي طالب «وحديث أنّه قال(صلى الله عليه وآله): «أنا أكرم على الله من أن يدعني تحت الأرض مائتي عام» وحديث: «أفطر الحاجم والمحجوم انّهما كانا يغتابان»(٣٦. (

ثانيهم محمد بن الحسن الأصفهاني ويعرف بابن فورك وصفه الذهبي بقوله) :الإمام العلّامة الصالح شيخ المتكلّمين ...) (... حمل مقيّدا إلى شيراز للعقائد (...وهذا يستدعي وقفة تأمل، والبحث عن سبب حمله مقيّداً، ولئن دمدم الذهبي في ذكره فقد أبانه أبو الوليد الباجي بقوله: (أنّ السلطان محموداً سأله عن رسول الله، فقال :كان رسول الله وأما اليوم فلا، فأمر بقتله بالسم) وقال ابن حزم: (كان يقول: إنّ روح رسول الله قد بطلت وتلاشت، وما هي في الجنة)(٣٧. (

وذكر الذهبي في ترجمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي في سير أعلام النبلاء (٣٨) أنّ ابن فورك دخل على السلطان محمود فقال: لا يجوز أن يوصف الله بالفوقية لأنّ لازم ذلك وصفه بالتحتية، فمن جاز أن يكون له فوق جاز أن يكون له تحت، فقال السلطان: ما أنا وصفته حتى يلزمني، بل هو وصف نفسه، فبهت ابن فورك، فلما خرج من عنده مات، فيقال: انشقت مرارته .

أقول: ومن العجب من الذهبي في وصفه للرجل (بالإمام العلّامة الصالح شيخ المتكلّمين..) فأين منه الصلاح وهو صاحب هذه المقالات الشنيعة الفظيعة!؟ ومع ذلك فقد حكى عن ابن خلكان قوله: ومشهده بالحيرة يزار ويستجاب الدعاء عنده، وعن عبد الغافر قوله: قبره بالحيرة ـ من نيسابور ـ يُستسقى به .

فهذا الرجل أنكر ردّ الشمس بدعوى امتناع خرق النواميس الطبيعية الكونية، لأنّ ذلك يستلزم حدوث اختلال في النظام الكوني في المجموعة الشمسية، ولو صحّ ذلك لزم أن يراه جميع أهل الأرض، وينقل إلينا بالتواتر لأنّه حدث مهمّ، وهذا لم ينقل فهو إذن لم يكن، وهذه مقالة بعض الفلاسفة، وتبعهم على هذه الشبهة بعض المتكلمين ومنهم ابن فورك المذكور آنفاً . فقد قال ذلك في كتابه الفصول، بعد أن أخرج الحديث عن أسماء بنت عميس، فاعترض وقال: إنّه لو كان صحيحاً لرآه جميع الأبشار ـ يعني البشر ـ في سائر الأقطار.

وهذا ما حكاه عنه البياضي في الصراط المستقيم(٣٩) ثم قال البياضي رداً عليه: أجبنا بانشقاق القمر للنبي المختار، ولم تعترف به طوائف الكفار، وقد اختلف الناس بما هو أظهر من ذلك، البسملة والوضوء وغيره ممّا كان النبي(صلى الله عليه وآله) يكررّه .

ثالثهم علي بن أحمد ابن حزم الظاهري الأموي هوىً وولاءً، والمجوسي أصلاً وابتداءً، راجع بشأنه تاريخ ابن خلكان في ترجمته، ستجد طائفة من أقوال العلماء فيه، نحو: كان كثير الوقوع في العلماء المتقدّمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه، وكان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين(٤٠)، إلى غير ذلك .

فهذا الرجل أنكر ردّ الشمس وشتم الرافضة لقولهم بذلك كما في كتابه الفِصَل في الملل والنحل، وقد ذكر ذلك ثلاث مرّات.

-1قال: ولا يختلفون ـ الرافضة ـ في أنّ الشمس ردّت على علي بن أبي طالب مرّتين: أفيكون في صفاقة الوجه وصلابة الخد وعدم الحياء على الكذب أكثر من هذا، على قرب العهد وكثرة الخلق(٤١ .)

-2وقال: ولا فرق بين من ادّعى شيئاً ممّا ذكر ـ وقد ذكر جملة من الخرافات ـ وبين دعوى الرافضة ردّ الشمس على علي بن أبي طالب مرّتين(٤٢ .)

-3وقال: وأقلّ الروافض غلواً يقولون: إنّ الشمس ردّت على علي بن أبي طالب مرّتين .

أقول: وهذا الذي قاله ابن حزم كله مجرّد شتائم، ولم يذكر كلمة واحدة وجهاً للتكذيب، فكل ما فاه به هو سب وسخرية واستهزاء، وساوى بين الحديث الثابت ـ كما سيأتي ـ وبين الخرافة وجعل ذلك من الغلوّ، ولم يَشفَعهُ بحجة مقبولة أو مرذولة، لكي ينظر القارئ فيها قبولاً أو ردّاً، فكان مبلغ علمه قبح الكلام وشتم الكرام، الذي هو سلاح اللئام .

ونحن بعد أن قدّمنا معرفته للقارئ في تطاوله على من يخالفه الرأي، فلا نطيل الوقوف معه في محاسبته، ونكتفي بما قاله فيه محمد بن عبد الهادي ـ تلميذ ابن تيمية ـ: «وهو كثير الوهم في الكلام على تصحيح الحديث وتضعيفه، وعلى أحوال الرواة»(٤٣) وبما قاله الشيخ ناصر الدين الألباني تعقيباً على ذلك: «فينبغي أن لا يؤخذ كلامه على الأحاديث إلا بعد التثبت من صحته وعدم

شذوذه، شأنه في الفقه الذي يتفرّد به، وعلم الكلام الذي يخالف السلف فيه ..»(٤٤) وحكى ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان في ترجمة ابن حزم أقوال من جرحوه وفيهم مؤرخ الأندلس.

أقول: كيف يتأتى النظر فيما قاله في الحديث هنا إذ لم يأت في إنكاره بغير شتم الرافضة! فإنكاره من الدفع بالصدر وزيادة في الأصر .

رابعهم من المنكرين المستكبرين هو ابن عساكر الشافعي الشامي، فهو لدة ابن حزم في دفعه بالصدر، وإن كان هو غيره في ازدياد الأصر، فقد ذكر الحديث بأسانيده في كتابه تاريخ مدينة دمشق الكبير في (ترجمة الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) وعقّب على ذلك بقوله: «هذا حديث منكر، وفيه غير واحد من المجاهيل»(٤٥).

أقول: ولابدّ لنا من تعقيب على ذلك حين نذكر الحديث بأسانيده، عند النظر في رجاله، لنُري القارئ مَن هم المجاهيل الذي عناهم، فيعلم صدقه من كذبه، في حكمه على المتن بالنكارة، وعلى غير واحد في رجال الإسناد بالجهالة . وهذا ما سنقرؤه للقارئ في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

خامسهم: من المنكرين المستكبرين هو ابن الجوزي الحنبلي، فقد ذكر الحديث في كتابه الموضوعات(٤٦) ذكره بعدة طرق، وعقّب عليها بقوله: «هذا حديث موضوع بلا شك، وقد اضطرب الرواة فيه » ثم نثر ما في مخيّلته من أقصى حيلته، فاتهم به ابن عقدة الزيدي، وختم كلامه بقوله: «قلت: ومن تغفيل واضع هذا الحديث أنّه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يتلمح إلى عدم الفائدة، فإنّ صلاة العصر بغيبوبة الشمس صارت قضاء، فرجوع الشمس لا يعيدها أداءً . وفي الصحيح عن النبي(صلى الله عليه وآله): إنّ الشمس لم تحبس على أحد إلّا ليوشع.«

أقول: لقد كفانا مؤنة الرد عليه جماعة من الحفّاظ وفي مقدّمتهم سبطه يوسف بن قزأوغلي في كتابه تذكرة الخواص، كما ردَ عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني والسيوطي، وغير هؤلاء، كما سيأتي محكي أقوالهم في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

سادسهم من المنكرين المستكبرين هو ابن تيمية الحراني الحنبلي الذي تحامل بظلم على العلامة الحلي في رده على كتابه (منهاج الكرامة) بكتابه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) فقد قال فيه(٤٧ :(

فصل: قال الرافضي ـ يعني به العلّامة الحلي ـ التاسع: رجوع الشمس له مرّتين. ...

والجواب أن يقال: فضل علي وولايته لله، وعلوّ منزلته عند الله، معلوم عند الله ولله الحمد من طرق ثابتة، أفادتنا العلم اليقيني، لا يحتاج معها إلى كذب، ولا إلى ما لا يعلم صدقه . وحديث ردّ الشمس له، قد ذكره طائفة كالطحاوي والقاضي عياض وغيرهما، وعدّوا ذلك من معجزات النبي(صلى الله عليه وآله)، لكنْ المحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث، يعلمون أنّ هذا الحديث كذب موضوع، كما ذكره ابن الجوزي في كتاب الموضوعات، فرواه من كتاب أبي جعفر العقيلي في الضعفاء (ثم حكى ما ذكره ابن الجوزي) إلى أن قال: أما الثاني ببابل، فلا ريب أنّ هذا كذب، وإنشاد الحميري لا حجة فيه، لأنّه لم يشهد ذلك والكذب قديم فقد سمعه فنظمه، وأهل الغلو في المدح والذم ينظمون مالا تتحقق صحته، لا سيما والحميري معروف بالغلوّ .

أقول: وسيأتي الردّ عليه في الباب الثالث حين يقرأ القارئ رواية الصحابة والتابعين والأعلام من الحفاظ للحديث، ويقف على أسماء جمع ممّن خصّه بتأليف خاص، هنالكم سيعرف من هو الكذّاب الأشر، ويتبيّن له مبلغ ابن تيمية في العلم والدين .

سابعهم من المنكرين المستكبرين هو ابن قيم الجوزية ـ وهذا تلميذ ابن تيمية ـ وعلى شاكلته في ترسم خطاه وتكذيبه لحديث ردّ الشمس، فقد أنكره في كتابه)المنار المنيف في الصحيح والضعيف)(٤٨ . (

ثامنهم من المنكرين المستكبرين هو ابن كثير الشافعي الشامي، وهو كسابقه في تلمذته على ابن تيمية، واقْتِفاء أَثَرِهِ فقد قال(٤٩): «أما حديث ردّ الشمس بسبب عليّ عليه السلام، فقد تقدّم ذكرنا له من طريق أسماء بنت عميس وهو أشهرها، وأبي سعيد وأبي هريرة وعلي نفسه، وهو مستنكر من جميع الوجوه، وقد مال إلى تقويته أحمد بن صالح المصري الحافظ، وأبو جعفر الطحاوي، والقاضي عياض، وكذا صحّحه جماعة من العلماء الرافضة كابن المطهر وذويه، وردّه وحكم بضعفه آخرون من كبّار حفاظ الحديث ونقّادهم، كعلي بن المديني، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، وحكاه عن شيخه محمد ويعلى بن عبيد الطنافسيين، وكأبي بكر محمد بن حاتم البخاري المعروف بابن زنجويه أحد الحفّاظ، والحافظ الكبير أبي القاسم ابن عساكر، وذكره الشيخ جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب الموضوعات.

وكذلك صرّح بوضعه شيخاي الحافظان الكبيران أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي . وقال: وأغرب من هذا ما ذكره ابن المطهر في كتابه المنهاج: إنّها ردت لعليّ مرّتين، فذكر الحديث المتقدّم ثم قال: وأما الثانية فلما أراد أن يعبر الفرات ببابل، اشتغل كثير من أصحابه بسبب دوابهم، وصلّى لنفسه في طائفة من أصحابه العصر، وفاتت كثيراً منهم فتكلموا في ذلك، فسأل الله ردّ الشمس فرُدّت.

أقول: وله نحو هذا في الشمائل: ١٤٤ – ١٦٣ . ولا كثير غرابة من ابن كثير، بعد أن عرفناه تلميذ ابن تيمية، وقد حبس معه في سجن القلعة مرة في حياته، ودفن معه بعد مماته، له مواقف ناصبية معلنة في أحداث السقيفة وما بعدها، وسيأتي في الباب الثالث ما يدحض مزاعمه في هذا الحديث .

فهؤلاء الأبناء الثمانية الذين أصرّوا مستكبرين على نفي وقوع حادثة ردّ الشمس في أيام النبي(صلى الله عليه وآله)، فضلاً عن إصرارهم بتكذيب حدوثها من بعده، وقبل الشروع في الرد عليهم، من الخير أن نبصّر القارئ الكريم بمعنى الإعجاز، وما المعجزة ؟ وما هو الفرق بينه وبين الكرامة، وهل السحر والشعبذة يساوقان الإعجاز ؟

وقبل الإجابة عَنْ هذه المسائل، نقول: إنّ باب المعجزات التي صدرت عن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، يستعظمه أهل الشك والإلحاد، لما فيه من مخالفة الطبع والخروج عن العادة، وقد ردَ عليهم أعلام المسلمين، بما يغني عن الإطالة في الرد عليهم، فأودعوا كتبهم، دلائل الإعجاز بالشواهد والآثار، وسبيل المعجزات للأنبياء(عليهم السلام) في خروجها عن العادة سبيل إيجاد أعيان الخلق لا من سابقة، كما انّ إيجاد الخلق لا من شيء لا مفهوم ولا معقول، ولكن يُعرف ويُعلم بقيام الأدلّة عليه، كذلك معجزات الأنبياء(عليهم السلام) غير موهومة ولا معقولة، وإنّما تعلم بقيام الأدلّة عليها .

والآن إلى الفصول التالية من هذه الرسالة:

- 1راجع تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٣ ط الغري.

- 2الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

- 3الحجر: ١٤ – ١٥.

- 4الأعراف: ١٣٢.

- 5النمل: ١٣.

- 6القمر: ٢.

- 7فصلت: ٦.

- 8العنكبوت: ٥٠.

- 9ذكر ذلك في مقدمته لتعريب كتاب (بوكنز(في شرح مذهب داروين عن نظرية النشوء والإرتقاء.

- 10الإسراء: ٩٠ – ٩٣.

- 11الأنعام: ١٠٩ – ١١١.

- 12راجع صحيح مسلم ٧: ٦٠ ط صبيح.

- 13لاحظ صفحة ١٠٤ من الطبعة الأولى تجده ذكر حديث بدء الدعوة (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ.(

فذكر قول النبي(صلى الله عليه وآله): «... فأيّكم يوازرني على هذا الأمر وأن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟: فأعرضوا عنه وهموا بتركه، لكن علياً نهض وما يزال صبياً دون الحلم وقال: أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت ...» فإنّه أسقط من الحديث أولاً ما فرّع به رسول الله(صلى الله عليه وآله) كلامه من قوله لعلي: فأنت أخي ووصيي ووارثي، ثم نسب إلى أمير المؤمنين(عليه السلام) ثانياً أنّه قال: أنا يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت، وهذا ما لم يقله أمير المؤمنين(عليه السلام)، بل الذي قاله كما في تاريخ الطبري وغيره: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبته وقال: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأسمعوا له وأطيعوا .

وهذا ما حذفه في الطبعة الثانية في سنة 1354هجـ في صفحة ١٣٩، ولعلّه لو طبعه ثالثة لغيّر وبدّل بما شاء له الهوى وأملاه عليه الموروث .

- 14فقه السيرة: ٣٤ ط دار الكتاب العربي سنة ١٣٧٢ .

- 15محمد رسول البشر: ١٢٤.

- 16الإسراء: ٩٠ – ٩٣.

- 17الأنعام: ١٠٩.

- 18الكهف: ١١٠.

- 19العنكبوت: ٥٠ – ٥١.

- 20محمد الرسالة والرسول تأليف الدكتور نظمي لوقا، مقدمة بقلم السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة، قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها بإقليمي الجمهورية /الطبعة الثانية أغطس ١٩٥٩م طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم . تراجع الصفحات التالية منه ٨٦ – ٨٧ – ٨٨.

- 21القمر: ١.

- 22تهذيب الأسماء واللغات ٢: ١١٠ .

- 23رواه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال 435٦ :، وذكر النووي في تهذيب الأسماء واللغات ٢: ١١١ ط المنيرية أنّ الأوزاعي كان حاضراً فقال لرجل: قم إليه فاسأله ما ميراثه من جدتيه ؟ فحار ولم يكن عنده جواب، فما بات فيها إلّا ليلة واحدة فخرج من الغداة .

- 24طبقات المفسرين ٢: ٣٣٠ .

- 25الإمتاع والمؤانسة ٢: ١٥ .

- 26طبقات المفسرين ١: ٤٢ .

- 27البدء والتاريخ٢: ١٥٧ – ١٥٨ ط أُفست المثنى والخانجي .

- 28القمر: ١.

- 29الروم: ١– ٤.

- 30راجع خبيئة الأكوان، لصديق حسن خان القنوجي ص٢٤٢ ط الجو ائب سنة ١٢٩٦ هـ، جاء في سير أعلام النبلاء ٩: ٢١٧ ط دار الفكر: هشام بن عمرو أبو محمد الفوطي المعتزلي الكوفي... صاحب ذكاء وجدال، وبدعة ووبال. ...

وذكره ابن النديم في الفهرست: ٢١٤ ط رضا تجدد تحت عنوان (ذكر قوم من المعتزلة أبدعوا وتفردّوا (وذكر بعض مقالاته الفاسدة منها: «إنّ الشيطان لا يدخل في الإنسان وإنّما يوسوس له من خارج والله جلّ عن ذلك، يوصل وسوسته إلى قلب ابن آدم ليبتليه. وذكره عبد القاهر البغدادي المتوفّى سنة٤٢٩ هـ في كتابه الفَرقُ بين الفِرق: ٩٦ – ٩٩ ط عزت العطار سنة ١٣٦٧ هـ وقال: وفضائحه بعد ضلالته تترى منها، ثم عدّ ثمانيَ فضائح كما سماها، ونحا نحوه أبو المظفر الإسفراييني المتوفّى سنة ٤٧١ هـ في كتابه التبصير في الدين: ٤٦ ط عزت العطار سنة ١٣٥٩ هـ بمصر، فعد جملة من فضائحه، وذكر قوله: إنّ انشقاق القمر وفلق البحر وقلب العصا حية لا يدل على شيء من معجزاتهم» فإن صح هذا فيس هو بإنكار للانشقاق كما ذكره صديق حسن خان في خبيئة الأكوان .

- 31راجع كتاب علي إمام البررة ١: ٩٣ – ١٠١.

- 32الضعفاء للعقيلي ٣: ٢٣٥ برقم ٤٢٥.

- 33ميزان الاعتدال ٣: ١٣٨.

- 34سير أعلام النبلاء ٣: ٣٤٥ .

- 35الأبيات في تاريخ بغداد ١١: ٤٦٩ – ٤٧٠ .

- 36بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٣: ١٩٥ ط المنيرية، وعنه أفست دار الكتاب العربي بيروت، ولم يعقب ابن القيم على ذلك بشيء، وكأنّه ارتضى ذلك من ابن المديني مع أنّ الأحاديث التي ذكرها كلها لها تخريجات صحيحة في دواوين الحديث، وإليك ذكر المصادر وعلى القارئ المراجعة لْلتأَكُّدِ من كذب ابن المديني ومن وافقه.

الحديث الأول (لو صدق السائل ما أفلح من ردّه) ذكر في موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٦: ٧٦٢ نقل عن ثمانية مصادر منها التمهيد لابن عبد البر وإتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة لابن حجر العسقلاني وغيرها فراجع .

الحديث الثاني (لا وجع إلّا وجع العين، ولا غمّ إلّا غم الدين) ورد في الموسوعة المشار إليها آنفاً بلفظ (لا وجع إلّا وجع العين، ولا همّ إلّا هم الدين) عن سبعة مصادر منها مجمع الزوائد في مكانين، ومنها سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٧٤٦ وغيرها فهو إذن له أصل وإن كان بعض رواته ضعيفاً .

الحديث الثالث (انّ الشمس ردّت لعليّ بن أبي طالب (وهذا هو بيت القصيد عند ابن المديني الذي كان يلحس قصاع ابن أبي دؤاد وهما معاً من زبانية المتوكل الناصبي العنيد، وسيأتي البحث حوله سنداً ومتناً بما يغني ويفيد .

الحديث الرابع (أنا أكرم على الله من أن يدعني تحت الأرض مائتي عام) ورد في الموسوعة المشار إليها آنفاً ٢: ٥٠٩ نقلاً عن الحاوي واللئالي فراجع .

الحديث الخامس (أفطر الحاجم والمحجوم انّهما كانا يغتابان) ورد في الموسوعة نقلاً عن أكثر من ثلاثين مصدراً بينها سنن أبي داود في أربعة مواضع، والترمذي في موضع واحد، وابن ماجة في ثلاثة مواضع، ومسند أحمد في خمسة عشر موضعاً، وسنن البيهقي في ثلاثة مواضع، وسنن الدارمي في موضعين، ومصنف عبد الرزاق في خمسة مواضع، ومعجم الطبراني الكبير في سبعة مواضع إلى غير ذلك من المصادر من دواوين الحديث لأعلام المحدّثين، فكل هؤلاء لم يستضيئوا بنور علم ابن المديني، وخفي عليهم ما علمه ابن المديني، وفيهم أحمد بن حنبل و كان معاصراً له ومصاحباً له، ثم جفاه لأنّه دخل مداخل السوء وضلع في ركاب الظالمين.

- 37سير أعلام النبلاء ١٣: ١٣٠ ط دار الفكر .

- 38المصدر نفسه ١٣: ٣١٤ .

- 39الصراط المستقيم ١: ٢٠١ – ٢٠٣.

- 40دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي ٢: ٤٣٢ عن ط مصر أفست دار الفكر بيروت.

- 41الفِصَل ٤: ١٣٩ ط مصر سنة.

- 42نفس المصدر ٥: ٣.

- 43مختصر طبقات المحدّثين: ٤٠١ كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١: ١٤١ .

- 44سلسة الأحاديث الصحيحة ١: ١٤١.

- 45تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام) ٢: ٢٩٢ تحقيق الشيخ المحمودي.

- 46الموضوعات ١: ٣٥٥ – ٣٥٧ ط الأولى نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

- 47منهاج السنّة٤: ١٨٥– ١٩٥ ط بولاق.

- 48المنار المنيف في الصحيح والضعيف:٥٧– ٥٨ ط مكتب المطبوعات الإسلامية في حلب في الفصل العاشر الحديث/٨٣.

- 49البداية والنهاية ٦: ٢٨٢ ط السعادة بمصر .

الفصل الثاني

في الجواب عن الشبهات

من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول :في حقيقة الإعجاز وما هي المعجزة ؟

أولاً تعريف الإعجاز والمعجزة:

-1قال علماء اللغة(١) انّ معنى الإعجاز الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلانٌ أي فاتني، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، وأصل العجز التأخّر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، وصار اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة، قال تعالى: (أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ)(٢) وأعجزت فلاناً وعجّزته: جعلته عاجزاً.

وقد نوقش في ذلك بأنّه صح لغة بمقتضى المواضعة، إذ لا تصح المعجزة إلّا عن ما تصح القدرة عليه(٣) وقالوا: إن المعجزة مشتقة من الإعجاز، وهي اسم فاعل له لحقته التاء للتأنيث بعد نقله من الوصفيّة إلى الإسميّة .

-2وقال علماء الكلام: الإعجاز أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية، بما يثبت دعواه وتفوّقه وسبقه في كل مجال كان فيه التحدي، ويعجز عنه غيره، وهو ما لا يقدر عليه في صفته أو في جنسه، فأما ما لا يقدر عليه في صفته مثل فلق البحر، فإنا وإن كنا نقدر على تفريق الأجسام المؤتلفة، لكن لا على تلك الصفة، فتلك الحالة لا نقدر عليها .

وأما ما لا يقدر عليه في جنسه مثل إحياء الموتى، وقلب العصا ثعباناً .

وأما مالا يقدر عليه لا في صفته ولا في جنسه مثل شق القمر فلقتين.

فأما الإخبار بالغيوب فليس بمعجز، ولا وقوع المخبر به على ما أخبر معجز، إذ يجوز على خبر الغيب أن يكون صدقا أو كذباً كسائر الأخبار، إلا أن يكون المخبر نبياً أو وصي نبيّ، فذلك يكون حجة .

أما ما يقوله أهل الكهانة والعرافة، فلا يجب التصديق به، وليس هو من الإخبار بالغيب الذي يلزمنا الإيمان به على نحو ما ورد في الكتاب المجيد: (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)(٤.(

فتبيّن: أنّ المعجزة تطلق على الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدّي، السالم من المعارضة، وهذا أوجز تعريف وأشهره وهو جامع مانع، وما قيل معه من بيان فهو توسّع بقصد التوضيح .

وقد دخل في قولهم (الأمر) كل أنواع المعجزات الحسية والمعنوية ممّا كان من قبيل القول كالقرآن الكريم .

أو من قبيل الفعل كعصا موسى(صلى الله عليه وآله)، أو من قبيل ترك الخاصة كعدم إحراق النار سيدنا إبراهيم(صلى الله عليه وآله .(

وقد خرج عن المعجزة بقولهم (الخارق للعادة) كل ما جرت به العادة وتوصّل إليه عن طريق الأسباب والسنن الطبيعية، كالسحر والشعبذة، والمخترعات العلمية بأنواع مكتشفاتها .

وخرج بقولهم: (المقرون بالتحدّي) الكرامة، وما فيه خوارق للعادة من دون تَحَدٍّ .

وخرج بقولهم: (السالم عن المعارضة) كل ما أمكن الإتيان بمثله من مظاهر غير معتادة يتوصّل إليها بضرب من التمرين والرياضة .

وإنّما تكون المعجزة شاهد صدق صاحبها فيما إذا أمكن صدق دعواه، أما إذا لم يمكن ذلك، بل كان ممتنعاً بحكم العقل، كدعوى الإلهية مع الله تعالى أو بدونه، لاستحالة ذلك (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا)(٥) أو ممتنعاً بحكم النقل، كدعوى النبوة بعد الخاتم(صلى الله عليه وآله) فلا يمكن تصديق المدعي لقول الخاتم(صلى الله عليه وآله): «لا نبي بعدي»(٦) ولا يجب على الله إبطال

ذلك بعد حكم العقل بالاستحالة في زعم الإلوهية، وحكم النقل الثابت الصحيح بنفي النبوة بعد الخاتم(صلى الله عليه وآله. (

فَتحَصّلَ في تعريف الإعجاز بأنّه أمر له حقيقة واقعية، غير انّه جارٍ على غير سنن الطبيعة، بل هو أمر خارق للعادة ومقرون بالتحدّي، وأما المقدّمات الطبيعية فهي مطويّة فيه، وتتحقّق المعجزة بلا وساطة سبب عادي، بل بالإرادة الربانيّة المحيطة بالأسباب والمسبّبات، المهيمنة على تأثير السبب في المسبَّب، وتأثر المسبَّب بالسبب، وعندما تحصل المعجزة يحصل اليقين بأنّ الله سبحانه فعلها تصديقاً لنبيّه أو وصي نبيّه .

ولو لم يكن صادقاً في دعواه، لكان حدوث المعجزة على يده تصديقاً لكاذب، وهذا موجب لإضلال الناس، وهو قبيح، وتعالى الله سبحانه عن فعل القبيح، خلافاً لمن جوّز ذلك عليه، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علّواً كبيراً .

ثانياً شروط المعجزة :

لقد ذكر العلماء شروطاً للمعجزة الظاهرة على أيدي أنبياء الله تعالى ورسله، وسماها بعضهم بالصفات والأحكام، ولا مشاحّة في الإصطلاح، ولنقرأ بعض ما ذكروه.

فقال أبو بكر الباقلاني: «أن تكون آياتهم - يعني الأنبياء(عليهم السلام) - من أفعال الله سبحانه التي ينفرد بالقدرة عليها دون سائر خلقه ... وأن يكون ظهور المعجزة ممّا يخرق العادة وينقضها، وأن يكون غير النبي أو الرسول ومن أكرمه الله تعالى ممنوعاً وعاجزاً من إظهار ذلك على يده، وأن يكون مفعولاً عند تحدّي الرسل أن يأتي غيره بمثله» (٧ .(

وما ذكره تضمن أربعة شروط، إلا أن غيره زاد عليها، فالعلّامة الحلي(رحمه الله) قال :

ولابدّ في المعجزة من شروط :

أحدهما: أن تعجز عن مثله أو عمّا يقاربه، الأمّة المبعوث إليها .

الثاني: أن يكون من قبل الله تعالى أو بأمره .

الثالث: أن يكون في زمان التكليف، لأنّ العادة تنتقض عند إشراط الساعة .

الرابع: أن يحدث عقيب دعوى المدّعي للنبوّة، أو جارياً مجرى ذلك، ونعني بالجاري مجرى ذلك، أن يظهر دعوة النبي في زمانه، وأنّه لا يدّعي النبوة غيره، ثم يظهر المعجزة بعد أن ظهر معجزاً آخر عقيب دعواه .

الخامس: أن يكون خارقاً للعادة(٨. (

ولم يبعد هذا أيضاً عمّا ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره حيث ذكر أيضاً خمسة شروط، إن اختلّ أحدها فلا تكون معجزة، وهي باقتضاب :

-1أن تكون ممّا لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه كفلق البحر وانشقاق القمر ممّا لا يقدر عليه البشر .

-2أن تكون خارقة للعادة، ولو لم تكن كذلك لم تكن معجزة، كجعل العصا ثعبانا، وخروج الناقة من شق الحجر، ونبع الماء من بين الأصابع، ونحو ذلك من الآيات الخارقة للعادة .

-3أن يدّعيها مدعي الرسالة على الله سبحانه فيقول: آيتي هذه .

-4أن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها المستشهد بكونها معجزة له .

-5عَجْزُ الآخرين عن الإتيان بمثلها على وجه المعارضة (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)(٩. (

هذه خلاصة ما قاله القرطبي، وقد زاد الشيخ المجلسي(رحمه الله) على تلك الشروط فجعلها سبعة حتى يتحقّق الإعجاز بها، فقال في حقيقة المعجزة: وهي أمر يظهر بخلاف العادة من المدّعي للنبوة أو الإمامة عند تحدّي المنكرين على وجه يدلّ على صدقه، ولا يمكنهم معارضته، ولها سبعة شروط :

الأول أن يكون فعل الله أو ما يقوم مقامه من التروك، كما إذا قال معجزتي أن أضع يدي على رأسي وأنتم لا تقدرون .

الثاني أن يكون خارقاً للعادة .

الثالث أن يتعذّر معارضته فيخرج السحر والشعبذة .

الرابع أن يكون مقروناً بالتحدّي، ولا يشترط التصريح بالدعوى، بل تكتفي قرائن الأحوال .

الخامس أن يكون موافقاً للدعوى، فلو قال معجزتي كذا، وفعل خارقاً آخر لم يدلّ على صدقه، كما نقل من فعل مسيلمة وأنّه تفل في البئر ليزيد ماؤه فنضب ويبس(١٠ .(

السادس أن لا يكون ما أظهره مكذّباً له، كما لو أنطق الضبّ فقال :إنّه كاذب، فلا يعلم صدقه، بل يزداد اعتقاد كذبه، بخلاف أن يحيي الميت فيكذّبه، فإنّ الصحيح أنّه لا يخرج عن المعجزة، لأنّ إحياءه معجزة وهو غير مكذِب، وإنّما المكذَب ذلك الشخص بكلامه، وهو بعد الإحياء مختار في تصديقه وتكذيبه، فلا يقدح تكذيبه، ومنهم من قدح فيه مطلقاً، ومنهم من فرّق بين استمرار حياته وبين ما إذا خرّ ميّتا في الحال، فقدح في الثاني دون الأول، والأظهر ما ذكرناه .

السابع أن لا تكون المعجزة متقدماً (كذا) على الدعوى، بل مقارناً)كذا) لها أو متأخراً (كذا) عنها بزمان يسير معتاد مثله، والمشهور انّ الخوارق المتقدّمة على دعوى النبوة كرامات وإرهاصات أي تأسيسات للنبوة (١١. (

وللراغب الإصفهاني كلام في مقدّمة التفسير، قال في فصل إعجاز القرآن نذكر بعضاً منه نختم به هذا المبحث قال :

المعجزات التي أتى بها الأنبياء(عليهم السلام) ضربان: حسيّ وعقلي، فالحسيّ يدرك بالبصر كناقة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم، وعصا موسى(عليهم السلام)، والعقلي ما يدرك بالبصيرة كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلّم .

فأما الحسيّ فيشترك في إدراكه العامّة والخاصّة، وهو أوقع عند طبقات العامة، وآخذ بمجامع قلوبهم وأسرع لإدراكهم، إلّا أنّه لا يكاد يفرّق بين ما يكون معجزة في الحقيقة وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً أو سبباً اتفاقياً، أو مواطاة أو احتيالاً هندسياً أو تمويهاً وافتعالاً، إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء .

وأما العقلي فيختصّ بإدراكه كله الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة، والرؤية المتناهية، الذين يغنيهم إدراك الحق، وجعل تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسياً لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام» :كادت أُمتي أن تكون أنبياء»(١٢) ولأنّ هذه الشريعة لما كانت

باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير مبتذلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية.

وما أتى به النبي(صلى الله عليه وآله) من معجزاته الحسيّة كتسبيح الحصا في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحابه.

وأما العقليات فمن تفكّر بما أورده عليه الصلاة والسلام من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة، اطلع على أشياء عجيبة، وممّا خصّه الله به من المعجزات القرآن، وهو آية حسيّة عقلية، صامتة ناطقة، باقية على الدهر، مبثوثة في الأرض، ولذلك قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)(١٣. (

ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولي بسطة في البيان، إلى المعارضة نحو قوله: (وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)(١٤. (

وفي موضع آخر: (وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ)(١٥. (

وقال: (قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(١٦) فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدروا ما قصروا، ولبذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: (لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ)(١٧) وتارة يقولون لو شئنا لقلنا مثل هذا(١٨)، وتارة يصفونه بأنّه: (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(١٩) وتارة يقولون) :لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)(٢٠) وتارة يقولون) :ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ)(٢١. (

كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمثله علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يقال إنه عورض فلم ينقل، فالنفوس مهتزة لنقل ما دقّ وجلّ، وقد رأينا كتباً كثيرة صُنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتداولت(٢٢. (

وأخيراً فاقرأ ما قال عمر فروّخ في كتاب تاريخ الفكر العربي إلى أيّام ابن خلدون(٢٣:(

والقرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى في الإسلام وفي غير الإسلام، بمادته وأسلوبه، فليس في التاريخ كتاب بقي كيوم نزل معنى ونصّاً كالقرآن، ثم كان له من الأثر ما كان للقرآن الكريم في جميع ميادين الحياة، إنّ اسلوب القرآن الكريم هو الاسلوب الأمثل لأقدم اللغات الحيّة، وإنّ موضوعاته أصحّ الموضوعات، وهو الذي حفظ الإسلام، وحفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامية، ثم عجز البشر عن معارضته بالإتيان بسورة من مثله، أو بجزء من سورة .

ما هي العادة وما هو خرق العادة ؟

ج - لابدّ لنا من معرفة معنى العادات وانخراقها، وأنّها إذا انخرقت دلّت على صدق الرّسل، فنقول: إنّ العادة هي تكرار علم العالم بوجود الشيء المعتاد على طريقة واحدة، إما بتجدّد صفته وبتكرّرها، أو ببقائه على حالة واحدة، كما يقال :عادة فلان إفشاء السلام، وعادة فلان إطعام الطعام، وعادة فلان الهذر وكثرة الكلام، إلى غير ذلك ممّا يتكرر وقوعه على طريقة واحدة، أو تكون الصفة به لازمة، فتكون العادة هي الأمر المعتاد المتكرّر على وجه واحد، وإن كان ذلك بالإعتياد أيضاً بمعنى هو الوجود له والعلم به .

وقد تكون العادات ممّا يستوي فيها الناس وجميع أهل الأعصار والأمصار كالأكل والشرب والنوم، فلا معجزة في خرق ذلك، أو يستوي فيها أهل عصر دون غيرهم، وأهل مصر دون غيرهم، فلا يكون خرق العادة عند أهل ذلك العصر خرقاً لغيرهم، وإنّما يكون خرق العادة بالشيء الذي يفعله الله سبحانه معجزة لنبيّه الذي يتحدّى قبيله، ويحتجّ بها على نبوته ليلزمهم العلم بصدقه، وأنّه مرسل إليهم من الله تعالى.

فإن أرسل بشراً أرسله بما يخرق عادة البشر، وإن أرسل جنيّاً أظهر على يده ما هو خارق لعادة الجن، وإن أرسل طيراً أظهر على يده ما هو خارق لعادة الطير، وهكذا.

)وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ)(٢٤. (

)يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ)(٢٥. (

)وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(٢٦. (

)وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)(٢٧.(

فالعادة هي الحالة المستمرّة في نظام الطبيعة عند تلك الأمة، فحدوث خرق العادة ليس في وسع العلم إنكاره، كما أنّه ليس كل خرق عادة يكون معجزة، بل العادة أحد شروطها كما مرّ بيانه .

وثمة سؤال حول كلام النبي(صلى الله عليه وآله) مع قتلى الكفّار في قليب بدر، هل فيه خرق للعادة فهو معجزة أم لا ؟

قال ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: فيشبه أن قصةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمد(صلى الله عليه وآله) في أن ردّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله(صلى الله عليه وآله) بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

أقول: روى البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والنسائي، وأحمد بن حنبل جميعاً، والحديث بإسناد الأول عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طويّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشُدّ عليها رحلها، ثم مشي وتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلّا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرّكي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان أيسرّكم أنّكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاّ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال أبو طلحة: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلّم من أجساد لا أرواح فيها ؟ فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

قال قتادة - أحد رواة الحديث عن أنس -: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندما(٢٨ . (

ومن المؤسف أن نجد البخاري يذكر هذا الحديث، ثم يذكر في الكتاب نفسه في آخر الباب بسنده عن ابن عمر قال: وقف النبي(صلى الله عليه وآله) على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربّكم حقاً إنّهم الآن يسمعون ما أقول، فذكر لعائشة فقالت :إنّما قال النبي(صلى الله عليه وآله) إنّهم

الآن ليعلمون أنّ الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت: (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى) حتى قرأت الآية .

أقول: فإحدى روايتي البخاري غير صحيحة لا محالة، رغم كونها في صحيح البخاري، ورغم أنّ راويها من الصحابة لتنافي الروايتين بين)يسمعون) وبين)ليعلمون)، فأيّهما الصحيح ؟ وكيف بقداسة كتاب الصحيح ؟

وحتى هذه المعجزة لم تسلم من عبث الرواة، ليتطرّق الريب في صحتها، وهذه بليّة تقديس الموروث، وأنّ ما ورد في الصحيحين لا يسع ردّه، وهذا من أفظع القول وأبخسه لحق أئمّة المذاهب الأربعة الذين ردّوا بعض ما أخرجه الشيخان من بعد في صحيحيهما «وقد أورد ابن القيم أكثر من مائة شاهد على ذلك في كتابه إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ولم يُضَلِّلْ أحدٌ أئمّة المذاهب ولا علماءهم بسبب ذلك»(٢٩.(

وأما ما يجري الله سبحانه من خرق العوائد على أيدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضةً أو نحو ذلك، فهذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يردّه مؤمن، وهذا ليس من قبيل الصناعات، وإنّما هذا عن مشيئة الله تعالى، واختياره وفعله، إكراماً لوليه، فأجرى تفعيله على يده، وأحسب هذا كافياً في بيان معنى الإعجاز والمعجزة والعادة .

المبحث الثاني :في الفرق بين المعجزة وبين الكرامة، وماذا عن الكرامة ؟

سبق أن ذكرنا تعريف المعجزة وشرائطها، وهو يكفي لمعرفة الفرق بينها وبين الكرامة، لولا أنّ الكرامة وهي أيضاً نفحة من نفحات القدس تشرق على روح الوليّ، فَيَدْعُوْ الله سبحانه وتعالى، فيستجيب له، وتصدر على يديه أمور خارقة للعادة، فقد تظن أنّها معجزة، وليست كذلك .

وبعيداً عن دعاوى بعض المغالين في كرامات بعض الأولياء وزعمها لكل من هبّ ودبّ، وبعيداً أيضاً عن خوارق قد تصدر عن بعض أصحاب الرياضات التي تهذّب نفوسهم، فتصفو حتى تشرق الروح، وإنّ للروح تسلطاً على الماديات، فتصدر منهم بعض الخوارق ممّا يحسبه الظمآن ماء، وهو كسراب بقيعة فيحسبها الجاهل بأنّها كرامة لذلك المرتاض، وهي ليست كذلك .

ولتقريب المراد إلى الأذهان نقولُ: إنّها مسألة قوة روحية تهيمن على الإنسان سواء كان طائعاً أم عاصياً، مسلماً أو غير مسلم، كما في مسألة تحضير الأرواح حيث يتجرّد الوسيط عن حالته العادية، ويصير في حالة أُخرى تحت سلطان روحه، فليس ما يصدر عنه بكرامة، لأن الكرامة التي نبحث عنها لا تصدر إلا من الطائع لله تعالى من نبي أو وصي أو ولي امتحن الله قلبه بالإيمان، وهي من جميعهم بفضل من الله الحكيم العليم، الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا يأتي لهم جميعاً استعمال تلك القوّة الروحية في مقام التنفيذ في كل حين .

وكم قرأنا في تاريخ الأنبياء والأوصياء والأولياء ما أصابهم من عظيم البلاء، فكانوا يصبرون على شدة اللأواء، وإيمانهم على قوته في السرآء والضرآء، فهم يصيبهم ما يصيب الناس، ويألمون كما تألمون، ومع ذلك لم يستغلّوا تلك القوّة الروحيّة في دفع ما أصابهم، ويبقى عظيم الفرق بين المعجزة وبين الكرامة هو التحدي في الأولى دون اشتراطه في الثانية، ويمكن لنا أن نقسّمها إلى عدّة اعتبارات فيما نحن عليه من الإعتقاد كمسلمين .

أولاً: إعتقاد جواز وقوعها بإشاءة الله تعالى وقدرته، فيوقعها إذا شاء إظهاراً لكرامة عبده من دون سبب، وهذا ممّا لا نزاع فيه بين المسلمين .

ثانياً: إعتقاد تحقّق وقوعها بالفعل لأُناس ثبتت لهم بالنص من الكتاب المجيد، سواء كان صاحبها نبياً كما في قصة إبراهيم (صلى الله عليه وآله) حين جعل الله النار عليه برداً وسلاماً، أو غير نبي كما قي قصة مريم (عليها السلام) عند ولادتها عيسى (عليهما السلام.(

)فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)(٣٠. (

وما دونها قصّة الذي عنده علمٌ من الكتاب، وقد أحضر لسليمان(صلى الله عليه وآله) عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يرتد إليه طرفه، واعطف على هذا قصّة أصحاب الكهف ونحو ذلك ممّا لا جدال في صحّة وقوعه لوروده في القرآن المجيد .

ثالثاً: تصديق وقوع الكرامة لأُناس صحّ فيها النقل برواية الآثار الثابتة الصحيحة، فيلزمنا تصديق ما ورد، ما دامت أدلّة الإثبات تامة الحجية عن الأثبات، كما في بعض الكرامات التي

وقعت لبعض الأنبياء أو الأوصياء، فإنّها لم ترد صراحة في الكتاب العزيز، وما طلب الإشارة لمن طلبها فيه بعزيز، كما في مسألة ردّ الشمس على سليمان(صلى الله عليه وآله)، أو ليوشع بن نون(صلى الله عليه وآله)، أو للنبي(صلى الله عليه وآله)، أو لأمير المؤمنين(عليه السلام)، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

فهذا النوع دون ما سبق آنفاً، فذلك نعتقد صحته من دون تردد، لأنّ القرآن نصّ عليه في آياته، وهذا لم ينصّ عليه بل كان طريق إثباته ما صحّ من الروايات، فهو صحيح عند من يرى ذلك، ولا إثم على من لا يرى ذلك إن كان محايداً ولم يكن معانداً.

رابعاً عدم لزوم التصديق بكل ما ينسب إلى بعض من يرى الناس فيهم خيراً، ما دام لم يأت بذلك نصّ صريح من كتاب أو خبر صحيح، وهذا هو القسم الذي يقع فيه النزاع لأنّه مجال للتردّد والتشكيك، لأنّه نقل إلينا عن طريق التاريخ كسائر ما فيه من أخبار الحوادث والآثار، فهو دون القسم الثاني بلا شك، بل ولا كالقسم الثالث.

فمتى توفّرت شروط الصحة في قبول النقل، كان على من توفّرت لديه أن يذعن بالتصديق، ومن لم تتوفّر لديه، فلا جناح عليه.

فإذا قيل لك: إنّ لفلان الولي كرامة كذا، فهو كما إذا قيل لك إنّه وُلد سنة كذا، أو حجّ سنة كذا، أو مات سنة كذا، فإن أقنعك الناقل الراوي بصدقه صدّقته في خبره عن الكرامة التي نسبها لوليّه ولا تكابره، وإلّا كنت معذوراً في الرفض، وليس للمخبر عنه من سلطان يفرض عليك تصديقه، ما دمت غير واثق من صدقه، ولا هو ممّن جعل الشارع قوله حجة عليك في الدين.

أما إذا كان الراوي ممّن أمرنا الشارع بتصديقه لإيمانه وعدالته ووثاقته، فليس لنا أن نردّ قوله، بل علينا ترتيب الأثر على خبره، والردّ عليه يكون حينئذٍ مكابرة مقيتة وعناداً للحق .

فتحصّل أنّ الكرامة وقوعاً إنّما يكون ثبوتها بالآثار الصحيحة، كما أنّ ثبوتها لشخص معيّن لا يستلزم ثبوت مثلها لشخص آخر، ولا مانع من أن يقع مثلها لآخرين إذا صحّ النقل، فما يحدث لأولياء الله تعالى من الكرامات الظاهرة التي لا شك فيها ولا شبهة ممّا ورد ذكره في الكتاب، هو حق صحيح لا امتراء فيه، لأنّه ورد في محكم التنزيل من قصص الصالحين الذين أجرى الله سبحانه لهم وعلى أيديهم من الكرامات الظاهرة، كما في قصّة ذي القرنين وممّا تهيأ له ممّا تعجز

عنه الطباع البشرية، فقال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)(٣١. (

وقد مرّت الإشارة منّا إلى قصّة إبراهيم(صلى الله عليه وآله(، ومريم(عليها السلام)، وقصّة آصف بن برخيا الذي عنده علم من الكتاب، فأتى بعرش بلقيس لسليمان(صلى الله عليه وآله) قبل أن يرتد إليه طرفه، فهذا كله حق ومن شك في ذلك كافر .

فتبيّن أنّ وقوع الكرامة من غيرهم ممّن كانوا هم من أهل الولاية والكرامة، فهو حق عند من تحقّق لديه الوقوع بالدليل الذي يطمئن إليه ويؤمن به قلبه، وليس لأحد أن ينازعه في ذلك المعتقد، ولا أن يشنّع عليه، كما أنّه هو أيضاً ليس له أن ينازع غير المعتقد ليحمله على مشاركته له في اعتقاده .

نعم له أن يطرح عقيدته وحجته بالتي هي أحسن فمن استجاب أجاب، ومن لم يستجب فلا تثريب عليه، ولا شك أنّ اختلاف الرؤى إنمّا يحدث نتيجة القناعة الشخصية، وربما خضعت لبعض المؤثرات الخارجية كما لو كان الإنسان واقعاً تحت طائلة الرواسب من طائفية أو بيئية وغير ذلك، وكان منساقاً مع هواه، فلا مانع من تنبيهه إلى خطأ ما هو واقع فيه بالتي أحسن، فإن ارعوى فاهتدى فذلك، وإن أصرّ معانداً ومستكبراً فالإعراض عنه أولى وأجدى.

)فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)(٣٢. (

وللجاحظ كلام في اختلاف أحوال الناس عند سماع الغرائب، يجدر بنا نقله في المقام، قال: وأكثر الناس لا تجدهم إلّا في حالتين، إما في حال إعراض عن التبيّن وإهمال للنفس، وإما في حال تكذيب وإنكار وتسرّع إلى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب، والرغبة في الفوائد.

ثم يرى بعضهم أنّ له بذلك التكذيب فضيلة، وانّ ذلك باب من التوقي، وجنس من استعظام الكذب، وانّه لم يكن كذلك إلّا من حاقّ الرغبة في الصدق، وبئس الشيء عادة الإقرار والقبول، والحق الذي أمر الله تعالى به ورغّب فيه وحثَ عليه: أن ننكر من الخبر ضربين: أحدهما ما تناقض واستحال، والآخر ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة .

فإذا خرج الخبر من هذين البابين وجرى عليه حكم الجواز، فالتدبّر في ذلك التثبت، وأن يكون الحق في ذلك هو ضالتك، والصدق هو بغيتك، كائناً ما كان، وقع منك بالموافقة، أم وقع منك بالمكروه، ومتى لم تعلم أنّ ثواب الحق وثمرة الصدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقع على أن تعطي الثبت حقه(٣٣. (

ونعود إلى الكرامة وحقيقتها عند صاحب العقائد النسفية، وهو كتاب يقول به شطر كبير من أشاعرة هذه الأُمة، قال النسفي في كتابه العقائد النسفية» :وكرامات الأولياء حق فيظهر ـ الله سبحانه ـ الكرامة على طريق نقض العادة للولي من قطع المسافة البعيدة في المدّة القليلة، وظهور الطعام والشراب واللباس عند الحاجة، والمشي على الماء وفي الهواء، وكلام الجماد والعجماء، أو غير ذلك من الأشياء .

ويكون ذلك معجزة للرسول الذي ظهرت هذه الكرامة لواحد من أُمته، لأنّه يظهر بها أنّه ولي، ولن يكون ولياً إلّا وأن يكون محقّاً في ديانته، وديانته الإقرار برسالة رسوله»(٣٤. (

وقال التفتازاني في شرح العقائد النسفية: «والدليل على حقيقة الكرامة ما تواتر عن كثير من الصحابة ومن بعدهم بحيث لا يمكن إنكاره، خصوصاً الأمر المشترك، وإن كانت التفاصيل آحاداً، وأيضاً الكتاب ناطق بظهورها من مريم ومن صاحب سليمان(صلى الله عليه وآله) كما تقدّم.

وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسّكاً بالشريعة، متجنّباً للموبقات، فالذي يظهر على يده من الخوارق يعدّ كرامة، وإلا فهو سحر وشعبذة . كما أنّ الكرامة ينبغي لصاحبها كتمان التحدّث بها من جهة رؤية النفس، فلا يأمن السلب من جهة العُجب ومن جهة الرياء لئلا يتشاغل عن الشكر لله عليها بالحديث عنها عند الناس، كما أنّه لا يأمن الحسد عليها فيوقع غيره في المحذور.

وقد يستأنس لهذا الأخير بقول سيدنا يعقوب(صلى الله عليه وآله) كما حكاه القرآن المجيد بقوله: (قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)(٣٥. (

وقد كتب السبكي في طبقات الشافعية(٣٦) بحثاً طويلاً استعرض فيه الكرامات وشُبَه القدرية في منعها وذكر فساد تلك الشُبَه، وساق جملة ممّا زعم صدوره من الكرامات على أيدي الصحابة والتابعين، ثم ذكر من أنواع الكرامات خمسةً وعشرين نوعاً وختم كلامه بقوله: وأظن أنواع

كراماتهم تربو على المائة، وفيما أوردته دلالة على ما أهملته، ومقنع وبلاغ لمن زالت عنه غفلته.

وما من نوع من هذه الأنواع إلّا وقد كثرت فيه الأقاصيص والروايات، وشاعت فيه الأخبار والحكايات، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولا بعد بيان الهدى إلّا المحال، وليس للموفَّق غير التسليم وسؤال ربّه أن يلحقه بهؤلاء الصالحين، فإنّهم على صراط مستقيم، ولو حاولنا حصر ماجرياتهم لضيقنا الأنفاس وضيّعنا القِرطاس، ونحن نقول أيضاً: ولنترك الأمر إلى قناعة الناس .

المبحث الثالث :في السحر والشعبذة هل يساوقان المعجزة في الإعجاز ؟

قال تعالى: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيمانَ وَمَا كَفر سلَيْمانُ وَلَكنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفرِّقونَ به بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمونَ ما يضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا به أَنفسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون)(٣٧).

وهنا ثلاث مسائل نمرّ بها باختصار:

الأُولى في حقيقة السحر من خلال تعريفه.

الثانية في حقيقة السحر من خلال تفعيله.

الثالثة في حقيقة السحر من خلال تحريمه .

المسألة الأُولى: لقد قيل في تعريفه: السحر أصله التمويه بالحيل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيُخَيل للمسحور أنّها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد، فيُخَيّل إليه أنّه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً يخيّل إليه أنّ ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه . وقيل: هو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وكذلك إذا عللّته، والتسحير مثله، قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننّا عصافير من هذا الأنام المسحّرِ

وقوله تعالى: (إِنَّما أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ) وقيل: أصله الخفاء، فإنّ الساحر يفعله في خفية . وهناك أقوال غير هذا تلتقي عند قول الجوهري: السحر الأخذة، وكل ما لطف مأخذه ودقَ فهو سحر، وقد

سحره يسحره سحراً، والساحر: العالم، وسحره أيضاً بمعنى خدعه . وهذا ما يسمّى في الجاهلية بالعضه، والعضه عند العرب شدة البُهت وتمويه الكذب . قال الشاعر :

أعوذ بربّي من النافثات في عضه العاضه المعضه

المسألة الثانية في تفعيله، لقد اختلف هل له حقيقة أم لا ؟ فذكر الغزنوي في عيون المعاني له: أنّ السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض، قال: وعندنا أصله طلّسم يبني على تأثير خصائص الكواكب، كتأثير الشمس في زئبق عِصّي فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهّلوا له ما عسر .

وقال الشيخ الطوسي في كتاب الخلاف(٣٨): السحر له حقيقة ويصحّ منه أن يعقد، ويرقى، ويسحر فيقتل ويمرض ويكوّع(٣٩) الأيدي، ويفرّق بين الرجل وزوجته، ويتفق له أن يسحر بالعراق رجلاً بخراسان فيقتله، عند أكثر أهل العلم أبي حنيفة وأصحابه، ومالك والشافعي، وقال أبو جعفر الاسترابادي(٤٠) من أصحاب الشافعي: لا حقيقة له، وإنّما هو تخييل وشعبذة، وبه قال المغربي من أهل الظاهر، وهو الذي يقوى في نفسي .

ويدلّ على ذلك قوله تعالى مخبراً في قصّة فرعون والسحرة: (فإِذَا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سحْرِهِمْ أَنها تَسْعَى * فأَوْجَسَ فِي نَفسِهِ خِيفةً مُوسى)(٤١) وذلك أنّ القوم جعلوا من الحبال كهيئة الحيّات، وطلوا عليها الزيبق، وأخذوا الموعد على وقت تطلع فيه الشمس، حتى إذا وقعت على الزيبق تحرّك فخيّل لموسى أنّها حيّات تسعى، ولم يكن لها حقيقة، وكان هذا في أشدّ وقت السحر، فألقى موسى عصاه فأبطل عليهم السحر فآمنوا به .

وأيضاً فإنّ الواحد منّا لا يصح أن يفعل في غيره، وليس بينه وبينه اتصال، ولا اتصال بما اتصل بما فعل فيه، فكيف يفعل من هو ببغداد فيمن هو بخراسان وأبعد منها ؟ ولا ينفي هذا قوله تعالى: (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ)(٤٢) لأنّ ذلك لا يمنع منه، وإنّما الذي منعنا منه أن يؤثّر التأثير الذي يدّعونه، فأما أن يفعلوا ما يتخيل عند أشياء فلا يمنع منه .

فرية بلا حياء:

وقال الشيخ الطوسي أيضاً: ورووا عن عائشة أنّها قالت: مكث رسول الله(صلى الله عليه وآله) ستة أشهر، وفي رواية أخرى: أياماً يُخيّل إليه أنّه يأتي النساء ولا يأتيهنّ، وذكر تمام الحديث(٤٣. (

وروى زيد بن أرقم قال: سحَر رسول الله(صلى الله عليه وآله) رجل من اليهود، واشتكى ذلك أياماً، فأتاه جبرئيل، فقال له: إنّ رجلاً من اليهود سحرك، وعقد لك عُقُداً في بئر كذا، فبعث عليّاً فأخرجه، وكلّما حلّ منه عَقَداً وجد رسول الله(صلى الله عليه وآله) راحة، فلمّا حلّ الكل فكأنّما نشط من عقال(٤٤) وهذا نص .

ثم قال الشيخ الطوسي: وهذه أخبار آحاد لا يُعمل عليها في هذا المعنى، وقد روي عن عائشة أنّها قالت: سُحِرَ رسول الله(صلى الله عليه وآله) فما عمل فيه السحر، وهذا يعارض ذلك.

وقال ابن إدريس الحلي: ولا حقيقة للسحر وإنّما هو تخيل وشعبذة، وعند بعض المخالفين إنّ له حقيقة ... والرسول(صلى الله عليه وآله) ما سُحر عندنا بلا خلاف، لقوله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ) وعند بعض المخالفين أنّه سحر، وذلك بخلاف التنزيل(٤٥ . (

وقال الجصّاص الحنفي(٤٦): وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أطمّ من هذا وأفظع، وذلك أنّهم زعموا أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) سُحر، وأنّ السحر عمل فيه حتى قال فيه: إنّه يتخيل لي أنّي أقول الشيء وأفعله ولم أقله ولم أفعله، وأنّ امرأة يهوديّة سحرته في جفّ طلعته . ...

وقد قال الله تعالى مكذباً للكفّار فيما ادّعوه من ذلك للنبي(صلى الله عليه وآله) فقال جلّ من قائل: (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً) ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعّباً بالحشو الطغام، واستجراراً لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء(عليهم السلام) والقدح فيها، وأنّه لا فرق بين معجزات الأنبياء وفعل السحرة، وإنّ جميعه من نوع واحد .

قال القرطبي: وعندنا له حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء، وقال: ذهب أهل السنّة إلى أنّ السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أنّ السحر لا حقيقة له، وإنّما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنّه ضرب من الخفة والشعوذة كما قال تعالى) :يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)(٤٧) ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: (يخيّل إليه.(

وقال أيضاً: (سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ)(٤٨) وهذا لا حجة فيه، لأنّا لا ننكر أن يكون التخيّل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أُمور جوّزها العقل، وورد بها السمع، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من (٤٩) ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنّهم يعلّمون الناس السحر، فدلّ على أنّ له حقيقة، وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: (وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)...(٥٠. (

وقال القرطبي أيضاً: قال علماؤنا: لا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خَرق العادات ممّا ليس في مقدور البشر، من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو، ذلك ممّا قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد .

قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستدقّ جسم الساحر حتى يتولّج الكوّات والخوخات، والانتصاب على رأس قصبة، والجري على خيط مستدق، والطيران في الهواء، والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك.

ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علّة لوقوعه، ولا سبباً مؤكداً، ولا يكون الساحر مستقلاً به، وإنّما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويُحدثها عند وجود السحر، كما يخلق الشبع عند الأكل، والريّ عند شرب الماء.

روى سفيان عن عمّار الدهني أنّ ساحراً كان عند الوليد بن عقبة يمشي على حبل، ويدخل في أست الحمار ويخرج من فيه، فاشتمل له جندب على السيف، فقتله جُندب ـ هذا هو جندب بن كعب الأزدي ويقال البجلي ـ وهو الذي قال في حقه النبي(صلى الله عليه وآله): «يكون في أُمتي رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرّق بين الحق والباطل» فكانوا يرونه جندبا هذا قاتل الساحر(٥١ . (

المسألة الثالثة أجمع المسلمون على حرمته «ولا خلاف بينهم أن تعليمه وتعلّمه وفعله محرّم لقوله تعالى: (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) فذمّ على تعليم السحر، وروي عن ابن عباس أنّه(رحمه الله) قال :ليس منّا من سَحَر أو سُحر له، وليس منّا من تَكَهّن أو تُكهّن له، وليس منّا من تطيّر أو تُطيّر له»(٥٢. (

وإن اختلفوا في حكم الساحر المسلم والذمي، فذهب مالك إلى أنّ المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يستتاب ولا تقبل توبته، لأنّه أمر يستَسّر به كالزنديق والزاني، ولأنّ الله تعالى سمّى السحر كفراً بقوله: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ (وهو قول أحمد والشافعي وأبي حنيفة.

وإن كان الكلام الذي ذكر أنّه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فعن الشافعي لا يُقتل الساحر إلّا أن يقتل بسحره ويقول تعمّدت القتل، وإن قال لم أتعمّد لم يقتل، وفي الفقهاء من قال غير ذلك على تفصيل مذكور في كتب الأحكام ولسنا بصدده، وخلاصة ما عندنا ما رواه الكليني والصدوق عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: «ساحر المسلمين يقتل وساحر الكفّار لا يقتل، فقيل: يا رسول الله ولم لا يقتل ساحر الكفّار؟ قال: لأنّ الكفر أعظم من السحر، ولأنّ السحر والشرك مقرونان»(٥٣ (.

لفت نظر وتصحيح خطأ:

وهنا لابدّ لنا أن نلفت نظر القارئ إلى تصحيح خطأ حفلت به بعض كتب التفسير والحديث، وذلك هو أنّ الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، أو هو وبناته في قصّة سنذكرها، فرواها الرواة وتحيّر في فهمها بعض العلماء فحاول تبرير صحتها، وأنكرها آخر جملةً وتفصيلاً ، وهي غير منسجمة تماماً، مع طبيعة النبوة ومهمّة الرسالة، لذلك رأيت الإلمام باختصار برواية سحر النبي(صلى الله عليه وآله) وتخلخل عمودها الفقري ـ إن صح التعبير ـ لمجافاتها للرسالة.

فهي بالمفهوم المطروح لدى رواتها أنّه(صلى الله عليه وآله) يجوز عليه جميع ما يجوز على المسحور من فقدان الوعي والاختلال في الأقوال والأفعال، وبتعبير أعدائه (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ)(٥٤) ولست أدري لماذا الإصرار من بعض أصحاب الكتب على إثباتها، والتمحل في تبريرها ما دامت روايتها مخدوشة سنداً، ومردودة متناً كما يلي إيضاح ذلك .

أولا: رواها شيخ المحدّثين عند أصحابه، ومن جعلوا كتابه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى وهو البخاري، فقد أخرج القصّة في صحيحه مكرراً، ففي كتاب الطب في باب السحر وقول الله تعالى:

(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ) وفي كتاب الدعوات في باب تكرير الدعاء، وهذا ما رواه بإسْنادٍ ينتهي إلى هشام عن أبيه عن عائشة، ومع ذلك تفاوت عنده النقل، وإليك ذلك :

هشام عن أبيه عن عائشة قالت: سَحَرَ رسول الله(صلى الله عليه وآله (رجل من بني زُريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله(صلى الله عليه وآله (يُخيّل إليه أنّه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشَعَرتِ أنّ الله تعالى أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل ؟ فقال: مطبوب، قال: مَن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أيّ شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجفّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان.

فأتاها رسول الله(صلى الله عليه وآله) في ناس من أصحابه، فجاء، فقال: يا عائشة كأنّ ماءها نقاعة الحنّاء، وكأنّ رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت.

وهذا أخرجه مسلم أيضاً في كتاب الطب في باب السحر بتفاوت يسير في ألفاظه فهو من المتفق عليه عند أصحابه .

وأخرج القصّة ثانياً في كتاب الطب أيضاً باب هل يستخرج السحر؟ وفي كتاب الأدب باب قول الله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)(٥٥ (الآية، قال: حدّثني عبد الله بن محمد قال: سمعت ابن عُيْيَنَة يقول: أول من حدّثنا به ابن جريج يقول: حدّثني آل عروة عن عروة، فسألت هشاماً عنه فحدّثنا عن أبيه عن عائشة، قالت: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) سُحِر، حتى كان يرى أنّه يأتي النساء ولا يأتيهنّ، فقال: يا عائشة، أعلمت أنّ الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل ؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه ؟ قال: لبيد بن الأعصم رجل من بني زُريق حليف ليهود كان منافقاً، قال: وفيم ؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين ؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان .

قالت: فأتى النبي(صلى الله عليه وآله) البئر حتى استخرجه، فقال: هذه البئر التي أُريتها، وكأن ماءها نقاعة الحنّاء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، قال :فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا تنشّرت؟ فقال: أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً .

ولما كان الحديث رواه هشام عن أبيه عن عائشة، وهشام هذا هو ابن عروة الذي قال عنه الإمام مالك: «هشام بن عروة كذّاب»(٥٦) وذكر ابن حجر في ترجمته في تهذيب التهذيب وهدي الساري ما يفي بمعرفة سقوطه لتدليسه، فقد حكى عن ابن خراش قوله :كان مالك لا يرضاه .. بلغني أنّ مالكاً نقم عليه حديثه لأهل العراق، قدم الكوفة ثلاث مرات، قدمة كان يقول: حدّثني أبي قال: سمعت عائشة، وقدم الثانية فكان يقول :أخبرني أبي عن عائشة، وقدم الثالثة فكان يقول: أبي عن عائشة.

وذكر ابن حجر عن الآجري عن أبي داود لما حدّث هشام بن عروة بحديث أم زرع هجره أبو الأسود يتيم عروة، وقال العقيلي: قال ابن لهيعة: كان أبو الأسود يعجب من حديث هشام عن أبيه، وربما مكث سنة لا يكلّمه.

أما أبوه عروة بن الزبير مضافاً إلى نُصبه فقد وقفت على كذبه في حديثه، قال: كنت غلاماً لي ذؤابتان فقمت أركع ركعتين بعد العصر، فبصرني عمر بن الخطاب ومعه الدِرَّةُ، فلما رأيته فررت منه، فأحضر في طلبي حتى تعلّق بذؤابتي فنهاني، فقلت: يا أمير المؤمنين لا أعود .

أقول: ولما كانت ولادة عروة لستٍ خلون من خلافة عثمان، وكان بينه وبين أخيه عبد الله عشرون سنة، كما يقول ذلك مصعب الزبيري ـ وهو أعرف الناس بأنساب أهل بيته وتواريخهم ـ فقد أحرج الذين قالوا عنه كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً مأموناً ـ كما عن ابن سعد ـ فصاروا يتصنّعون له العذر، فقال ابن حجر في تهذيب التهذيب بعد ذكره الخبر الكاذب: وقع منه وهم، ولعلّ ذلك جرى لأخيه عبد الله بن الزبير، وسقط اسمه على بعض الرواة .

ولا نطيل عند بقية رجال السند بدءاً من البخاري الذي عدّوه من المدلّسين(٥٧)، واعتذروا عنه في هدي الساري، وفي آخر تاريخه أنّه أخرج من بخارا لفتياه بنشر الحرمة في الرضاع من لبن البهيمة(٥٨)، وانتهاء بأم المؤمنين التي حظيت دون غيرها من أمهات المؤمنين بأحاديث عجيبة وغريبة، رووها على لسانها وغلب على الكثير من أحاديثها طابع الغريزة الجنسية وما يمت إليها .

وأما الحديث من جهة المتن، فإنّ إشكالية أكثر المسلمين في هذا العصر اعتقادهم بأنّ النبي(صلى الله عليه وآله) هو كغيره يعتريه ما يعتري سائر الناس من الأمراض الجسمية والنفسية بل وحتى العقلية، وهنا موطن الخطأ، وهنا موضع الضرر .

واختصاراً في الطريق نطلب من أولئك أن يرضوا لمن قام بعده تلك الصفات، وليس من السهل زحزحتهم عن معتقدهم بعد أن ورثوا تركة ثقيلة في معتقدهم بأن ماضيهم هو الذي يملك الحقيقة، ولم يَسْمَعُوْا لمن ناقش أو عارض فضلاً عمّن نقد أو خطّأ، فهنالك الويل والثبور . وتبعة ذلك كله على من قالها بصلف « إنّه هجر» «إنّه يهجر» «إنّه قد غلب عليه الوجع» كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

وعلى من قال يخيّل إليه أنّه كان يأتي النساء ولا يأتيهنّ - كما مرّ آنفاً - وازداد الشر تفاقماً حين احتلت شخصيات وكتب مواضع القداسة، فلا مجال للبحث النقدي، بل يجب الخضوع للنقل مادام الحديث من رواية الشيخين وهو في الصحيحين، وكأنّهما وحي منزل.(!(

فعلينا أن نعقل ما ننقل ثم نقبل أو لا نقبل، فليست كثرة الرواية من غير وعي ودراية بشيء محمود، وقد مرّ بنا ما يتعلّق بسند الصحيح من التجريح، ولنعد إلى ما في متن الحديث من نقد يسقط عن الاعتبار، وحسبنا ما ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري(٥٩) فقد أطال الكلام مدافعاً وإن لم يكن مقنعاً .

فمن ذلك ما ورد في أحد الحديثين المذكورَيْنِ آنفاً، أنّ السحر استخرج وورد في الآخر لم يستخرج، وكلا الحديثين في البخاري عن هشام عن أبيه عن عائشة، وللتوفيق بين الحديثين انبرى للجمع شرّاح البخاري لكل طريق ولم يحالفهم التوفيق، إذ قالوا إن المستخرج هو جفّ الطلع، ومراد من قال بعده الاستخراج هو المشط والماشطة ممّا كان في داخل جفّ الطلع . وهذا ممّا يضحك وشرّ البلية ما يضحك.

ثم الاختلاف في الساحر من هو ؟ لبيد بن أعصم، أم بناته، أم غلام يهودي كان يخدم النبي(صلى الله عليه وآله) يقال له لبيد بن أعصم وكان تعجبه خدمته، وهذا من رواية عمرة عن عائشة كما في دلائل النبوة للبيهقي(٦٠)، وهو خبر منكر إذ لم يعهد أن استخدم النبي(صلى الله عليه وآله) غلاماً يهودياً.

ولو سلّمنا لما رواه ابن حجر في فتح الباري بأنّ اسمه عبد القدوس، وقد مات وهو صبي نقلاً عن ابن بشكوال عن صاحب العتبية، ينافي ما تقدّم عن دلائل النبوة للبيهقي، وفي هذا الكتاب جملة روايات في قصة السحر متنافرة، لا نطيل الوقوف عندها، ولا عند غيرها من روايات مهلهلة الإسناد، متنافرة المتون.

وممّا يضحك في المقام ذكر الملا علي القاري في مرقاة المفاتيح أنّه تكرّر سحره(صلى الله عليه وآله) مرتين؛ ليتم له الجمع بين روايتي سحره لبيد بن أعصم، ورواية سحرته بنات لبيد، وأحسبه لم يقف على رواية البيهقي سحره غلام كان يخدمه واسمه عبد القدوس، ولو اطلع عليها لجعل السحر ثلاث مرّات.

ثم إنّ المصيبة ما ذكروه من أَنَّهُ (صلى الله عليه وآله) أقام مسحوراً أربعين ليلة، كما في المستخرج للإسماعيلي، وفي رواية أحمد عن الزهري ستة أشهر، وفي إرشاد الساري سنة(٦١)، وليتهم حدّدوا لذلك سنة معيّنة لننظر متى كان كذلك حتى إنّه يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وما فعله، وتاريخه(صلى الله عليه وآله) معدودة أحداثه فمتى كانت تلك السنة أو الستة أشهر، بل وحتى الأربعون ليلة .

وما بال هذا الحدث لم يشعر بحدوثه من أزواجه سوى عائشة إن صحّت الرواية عنها؟ أليس كان لكلهنّ القَسَم، وهنّ على حد سواء مع عائشة في شؤون الحياة الزوجية، فما بالها روت ذلك وحدها، ولم يرد عن أمهات المؤمنين في ذلك شيء يذكر .

وقالوا في شأن نزول المعوذتين إنما كان لتعويذه(صلى الله عليه وآله (ممّا ألمّ به من السحر، وانّهما مدنيتان بينما البيهقي وهو ممّن روى السحر، ذكر السور المكية وعدّ منها المعوذتين، كما في دلائل النبوة(٦٢) وعنه في الإتقان للسيوطي(٦٣)، وتجد فيه نقولاً شتّى في أنّ السورتين نزلتا بمكة، بينما القصّة المزعومة كانت بالمدينة، وقد تَمَحَّلَ بعضهم فعدهما مدنيّتين تمشية لقصة السحر.

وقد صرّح غير واحد من أعلام الإسلام بكذب ما ورد في ذلك.

فقال العلّامة الحلي في كتابه (منتهى المطلب) في مبحث محرمات التجارة(٦٤) بعد إيراده رواية البخاري: وهذا القول عندي باطل، والروايات ضعيفة، خصوصاً رواية عائشة، لاستحالة تطرّق السحر إلى الأنبياء(عليهم السلام . (

وقال الشيخ البهائي: اعلم إنّا معاشر الإمامية على أنّ السحر لم يؤثر في النبي(صلى الله عليه وآله)، وأمره في هذه السورة ـ يعني الفلق ـ بالاستعاذة من سحرهن لا يدل على تأثير السحر فيه(صلى الله عليه وآله) وهو كالدعاء في (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا)(٦٥) وأما ما نقله المخالفون عنه أنّ السحر أثّرفيه(صلى الله عليه وآله)، كما رواه البخاري ومسلم من أنّه(صلى الله عليه وآله) سُحر حتى أنّه كان يُخيل إليه أنّه فعل الشيء ولم يكن فعله، فهو من جملة الأكاذيب، ولو صحّ ما نقلوه لصدق قول الكفّار: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا)(٦٦). ولما كان بعض كتب أصحابنا وردت فيها القصة وفاقاً لروايات العامة، فتلك أخبار آحاد مخدوشة الإسناد لا يعمل بها .

قال السيد الجواد في مفتاح الكرامة(٦٧): قد ورد في بعض أخبارنا وفاقاً لروايات العامة عن عائشة أنّه(صلى الله عليه وآله) سحره لبيد بن أعصم اليهودي، فقد أنكره الشيخ في الخلاف، والمصنف ـ يعني العلّامة الحلي ـ في المنتهى، وجماعة وهو كذلك قطعاً، تقضي به أصول المذهب، والروايات شاذة ضعيفة، محمولة على التقية، مخالفة للأصول والقواعد والإعتبار فلا يلتفت إلى ما احتمله في البحار..

وعلى نحو ما مرّ قال الجصاص الحنفي في أحكام القرآن مستنكراً إثبات حقيقة السحر: وقد أجازوا من فعل الساحر ما هو أطمّ من هذا وأفظع، وذلك أنّهم زعموا أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) سُحر، وأنّ السحر عمل فيه حتى قال فيه أنّه يتخيّل لي أنّي أقول الشيء وأفعله ولم أقله ولم أفعله، وإنّ امرأة يهودية سحرته في جف طلعة ومشط ومشاقة ـ ما يسقط من المشط ـ حتى أتاه جبريل(صلى الله عليه وآله) فأخبره أنّها سحرته في جف طلعة وهو تحت راعوفة البئر، فاستخرج وزال عن النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك العارض .

وقد قال الله تعالى مكذّباً للكفّار فيما ادّعوه من ذلك للنبي(صلى الله عليه وآله)، فقال: (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا)(٦٨) ثم قال :ومثل هذه الأخبار من وضع الملحدين تلعّباً بالحشو، الطغام،

واستجراراً لهم إلى القول بإبطال معجزات الأنبياء(عليهم السلام) والقدح فيها، وإنّه لا فرق بين الأنبياء وفعل السحرة، وأنّ جميعه من نوع واحد.

وقال: والعجب ممّن يجمع بين تصديق الأنبياء(عليهم السلام) وإثبات معجزاتهم، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السحرة، مع قوله تعالى: (وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) فصدّق هؤلاء من كذّبه الله، وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله .

وجائز أن تكون المرأة اليهودية بجهلها فعلت ذلك ظناً منها بأنّ ذلك يعمل في الأجساد، وقصدت به النبي(صلى الله عليه وآله) فأطلع الله نبيّه على موضع سرّها، وأظهر جهلها فيما ارتكبت وظنت، ليكون ذلك من دلائل نبوّته لا أنّ ذلك ضرّه وخلط عليه أمره، ولم يقل كل الرواة أنّه اختلط عليه أمره، وإنّما هذا اللفظ زيد في الحديث ولا أصل له(٦٩ . (

وقد ندّد الشيخ محمد عبده المصري بالقائلين بسحر النبي(صلى الله عليه وآله)، فقال بعد كلام له في ذلك: «وقد قال كثير من المقلّدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها: إنّ الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة، بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح في نظر المقلّدة بدعة ـ نعوذ بالله ـ يحتج بالقرآن على ثبوت السحر، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عن النبي(صلى الله عليه وآله) وعدّه من افتراء المشركين عليه، ويؤول في هذه الآية ولا يؤول في تلك، مع أنّ الذي يقصده المشركون ظاهر، لأنّهم كانوا يقولون: إنّ الشيطان يلابسه(صلى الله عليه وآله)، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد، فإنّه خالط عقله وإدراكه في زعمهم .

والذي يجب اعتقاده أنّ القرآن مقطوع به، وأنّه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم(صلى الله عليه وآله)، فهو الذي يجب الإعتقاد بما يثبته، وعدم الإعتقاد بما ينفيه، وقد جاء بنفي السحر عنه (صلى الله عليه وآله) حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه، ووبخهم على زعمهم هذا، فإذن هو ليس بمسحور قطعاً .

وأما الحديث ـ على فرض صحّته ـ فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون. ...

ولو كان هؤلاء يقدّرون الكتاب قدره، ويعرفون من اللغة ما يكفي لعاقل أن يتكلّم، ما هذروا هذا الهذر، ولا وصموا الإسلام بهذه الوصمة، وكيف يصح أن تكون هذه السورة نزلت في سحر النبي(صلى الله عليه وآله) مع أنّها مكية في قول عطاء والحسن وجابر وفي رواية كُريب عن ابن عباس، وما يزعمون من السحر إنّما وقع بالمدينة، لكن من تعوّد القول بالمحال، لا يمكن الكلام معه بحال، نعوذ بالله من الخبال .«

فتبيّن لنا الفرق بين المعجزة والكرامة وبين السحر والشعوذة، ومن أظهر الفوارق أنّ المعجزة غايتها الدعوة إلى الله سبحانه من غير معلّم، وتزداد ظهوراً مع الزمن، بينما السحر والشعبذة تفتقر إلى معلم ومرشد، وهي تظهر عند أناس يعرفون بالفساد، وأنّ الساحر يحتال على الناس بالتخيل كما نطق الكريم العليم في قرآنه العظيم في سحرة فرعون.

قال تعالى: (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى)(٧٠. (

ولا شك انّ التخييل يحتاج إلى إعمال فكر ونظر، وتقديم الأسباب والآلآت، وقد تخطئ وقد تصيب، بينما المعجزة إنّما تحصل لصاحبها النبي بمجرّد توجّهه بنفسه الكاملة، إلى المبدأ الأعلى جل شأنه فيطلبها منه عند حصول شرائطها كما قدّمنا ذكرها، أما الساحر فليس كذلك، وإن أتى بكل ما أتى به من خوارق للعادة وقوانين الطبيعة المألوفة، وحسبنا بهذا كبير الفرق.

مضافاً إلى أنّ صاحب المعجزة يؤيّده الله سبحانه وتعالى بإظهارها تأييداً لنبيّه، بينما الساحر لا يفلح سعيه، كما قال تعالى مخاطباً نبيه موسى (صلى الله عليه وآله) (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)(٧١.(

ولما كان السحر مهما أتقن الساحر صنعته، وقوّى أثره ورفع قوّته، فهو عند المسحور ينتهي بانتهاء الساعة، ويزول أثره عند إبطاله، ولا يبقى زمناً طويلاً، أما المعجزة والكرامة فليستا كذلك، فإنّهما يُبقيان أثراً في نفوس المؤمنين فيزدادوا إيماناً، كما قال تعالى مخاطباً نبينا(صلى الله عليه وآله): (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعوا أَهوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)(٧٢. (

ولما كان النبي الكريم كما قال الحافظ ابن شهراشوب له معجزات لم تكن لغيره، وذكر أنّ له أربعة آلاف وأربعمائة وأربعين معجزة، ذكرت منها ثلاثة آلاف تتنوع أربعة أنواع، ما كان قبله، وبعد ميلاده، وبعد بعثته، وبعد وفاته، وأقواها وأبقاها القرآن، لوجوه :

أحدها: إنّ معجزَ كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره، كما بعث الله موسى(صلى الله عليه وآله) في عصر السحرة بالعصا فإذا هي تلقف، وفلق البحر يبساً، وقلب العصا حيّة، فأبهر كل ساحر وأذلّ كل كافر .

وقوم عيسى(صلى الله عليه وآله) أطباء فبعثه الله بإبراء الزمنى وإحياء الموتى، بما دهش كل طبيب وأذهل كل لبيب .

وقوم محمد(صلى الله عليه وآله) بلغاء فصحاء فبعثه الله بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء، وأذعن له البلغاء وتبلّد فيه الشعراء، ليكون العجز عنه أقهر، والتقصير فيه أظهر .

والثاني: إنّ المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم، وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة، لأنّه لم ينقل عنهم من كلام جزل أو معنى بكر، وقالوا لنبيهم حين مروا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم، اجعل لنا إلهاً، والعرب أصح الناس أفهاماً وأحدّهم أذهاناً، فخصّوا بالقرآن بما يدركونه بالفطنة دون البديهة، لتخصّ كل أُمة بما يشاكل طبعها.

والثالث: أنّ معجز القرآن أبقى على الأعصار وأشهر في الأقطار، ومادام إعجازه فهو أحج وبالاختصاص أحق، فانتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغربا، قرناً بعد قرن، عصراً بعد عصر، وقد انقرض القوم وهذه سنة سبعين وخمسمائة من بعثته فلم يقدر أحد على معارضته (٧٣ .)

ولنختم المبحث هذا كما بدأنا به بآية من آياته تعالى التي ذكر فيها نبينا الكريم بأقصى ما ورد في حقه، قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٧٤) وقال تعالى: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)(٧٥.)

قال ابن عباس: يقول له لا ذُكرتُ إلّا ذُكرتَ معي في الأذان والإقامة والتشهّد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ولو أنّ رجلاً عبد الله جلّ ثناؤه، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أنّ محمداً رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافراً(٧٦ . (

وعلى ذلك كان قول حسان بن ثابت:

أغرّ عليه للنبوّة خاتمٌ من الله مشهود يلوح ويُشْهَدُ

وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنّ أشهدُ

قال الرازي في تفسيره: واعلم أنّه عامٌّ في كل ما ذكروه من النبوة، وشهرته في الأرض والسماوات، اسمه مكتوب على العرش، وأنّه يذكر معه في الشهادة والتشهّد، وأنّه تعالى ذكره في الكتب المتقدّمة، وانتشار ذكره في الآفاق، وأنّه ختمت به النبوة، وأنّه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل، وعند الختم، وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)(٧٧ (و(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)(٧٨) و(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)(٧٩.(

ومناداته باسم الرسول والنبي، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيعون ذكره، وهو معنى قوله تعالى: (سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا)(٨٠) كأنّه تعالى يقول: أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلّون عليك ويحفظون سنتّك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعه سنة، فهم يمثلون في الفريضة أمري، وفي السُنَة أمرك.

وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي: (مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)(٨١) (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)(٨٢.(

لا تأنف السلاطين من أتباعك، بل لا جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون وعظك، بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك، ويسلّمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشرفك باق إلى يوم القيامة(٨٣.(

* * *

الهوامش

- 1لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب (عجز.)

- 2المائدة: ٣١.

- 3راجع تقرير المناقشة والجواب عَنْها في البيان عن الفرق بين المعجزة والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات لابن الباقلاني31 – 8 :، منشورات جامعة الحكمة في بغداد، سلسلة علم الكلام / ٢.

- 4البقرة: ١ – ٥.

- 5الأنبياء: ٢٢.

- 6راجع حديث المنزلة وهو قوله(صلى الله عليه وآله) لعليّ(صلى الله عليه وآله): «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي» وهو من الأحاديث المتظافرة نقلها عنهُ الخاصة والعامة، وحسبك أنّ الحافظ أبا حازم خرّجه بخمسة آلاف سَنَدٍ، راجع كتاب علي إمام البررة ١: ٢٥٣ – ٢٨٦.

- 7الفرق بين المعجزة والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات لابن الباقلاني: ٨ – ٣١ منشورات جامعة الحكمة في بغداد سلسلة علم الكلام / ٢ .

- 8كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٢١٨ مطبعة الحكمة بقم.

- 9تفسير القرطبي ١: ٧١، والآية في سورة هود: ١٣.

- 10قارن تفسير القرطبي ١: ٧١ .

- 11بحار الأنوار ١٧: ٢٢٢ ط الإسلامية.

- 12لم أقف عليه ولا على مثله لفظاً، وإنّما ورد بلفظ «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» وهو من الأحاديث الضعيفة راجع موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٥: ٤٥٤.

- 13العنكبوت: ٥٠ ــ ٥١.

- 14البقرة: ٢٣.

- 15هود: ١٣.

- 16الإسراء: ٨٨.

- 17فصلت: ٢٦.

- 18إشارة إلى أول الآية التالية، وهي قوله تعالى) :وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) الأنفال: ٣١.

- 19الأنفال: ٣١.

- 20الفرقان: ٣٢.

- 21يونس: ١٥.

- 22مقدّمة التفسير للراغب الإصفهاني، ملحقة طباعة بكتاب (تنزيه القرآن) للقاضي عبد الجبار المعتزلي: ٤٢٧ ــ ٤٢٨ ط الجمالية بمصر سنة 1329هجـ.

- 23تاريخ الفكر العربي: ١٧٥ ط دار العلم للملايين بيروت.

- 24فاطر: ٢٤.

- 25الأنعام: ١٣٠.

- 26الإسراء: ١٥.

- 27الأنعام: ٣٨.

- 28صحيح البخاري كتاب المغازي باب قتل أبي جهل / 76 / 5 / ط بولاق، السيرة النبوية لابن كثير ٢: ٤٤٩ – ٤٥٠ تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر سنة ١٣٨٤ هجـ.

- 29باقتضاب من كتاب نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث لإسماعيل الكردي: ٣٣٣ ط دار الأوائل سنة ٢٠٠٢م.

- 30مريم: ٢٣ – ٢٥.

- 31الكهف: ٨٣ – ٨٤.

- 32الأنعام: ١٢٥.

- 33كتاب الحيوان ٣: ٢٣٨ تحقيق عبد السلام هارون.

- 34العقائد النسفية المطبوع بآخر شرحه للتفتازاني: ١٢٥ باستانبول سنة ١٣٢٦هجـ.

- 35نفس المصدر:١٧٥.

- 36طبقات الشافعية ٢. 344 – 314 :

- 37البقرة: ١٠٢.

- 38الخلاف ٥: ٣٢٧.

- 39أي تعوّج اليد مما تلي الابهام، نهاية ابن الأثير (كوع.)

- 40من فقهاء الشافعية كما في طبقاتهم لابن هداية الله: ٢٦.

- 41طه: ٦٦ – ٦٧.

- 42البقرة:١٠٢.

- 43صحيح البخاري وصحيح مسلم، وفي شروحهما طامات في ذلك .

- 44معجم الطبراني الكبير ٥: ١٨٠ بتفاوت يسير في اللفظ، ومجمع الزوائد ٦: ٢٨١.

- 45السرائر٦: ٢٦١ بتحقيقنا.

- 46أحكام القرآن ١: ٤٩ ط مصورة عن طبعة دار الخلافة العثمانية سنة ١٣٢٥ هجـ .

- 47طه: ٦٦.

- 48الأعراف: ١١٦.

- 49إشارة إلى الآية الكريمة التي مر ذكرها في أول المبحث.

- 50تفسير القرطبي ٢:٤٣ – ٤٦.

- 51ترجمه ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢:١١٨، جندب الخير الأزدي العامري قاتل الساحر،يكنّى أبا عبد الله له صحبة، يقال انّه جندب بن زهير، ويقال جندب بن عبد الله، ويقال جندب بن كعب بن عبد الله، روى عن النبي(صلى الله عليه وآله): «حد الساحر ضربة بالسيف» وعن سلمان الفارسي وعلي، وعنه حارثة بن وهب الصحابي والحسن البصري . ...

وترجمه أيضاً في الإصابة ١: ٢٥١ ونقل عن البخاري في تاريخه من طريق خالد الحذاء عن أبي عثمان قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله . ونقل عن البيهقي في الدلائل من طريق ابن وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود أنّ الوليد بن عقبة كان أميراً على العراق، وكان بين يديه ساحر يلعب فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيقوم خارجا فيرتد فيه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى، ورآه رجل صالح من المهاجرين فنظر إليه، فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، فأمر به الوليد فسجن ...وروي في أواخر ترجمته أنّ عثمان رفع إليه أمره فقال: أشهرت سيفاً في الإسلام لولا ما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيك لضربتك بأجود سيف بالمدينة، وأمر به إلى جبل الدخان . ...

أقول: هذا خليفة المسلمين وأخوه لأمه والي المسلمين عاقبا رجلاً من المسلمين لقتله ساحر المسلمين، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

- 52السرائر لابن إدريس ٦: ٢٦١ من التنضيد بتحقيقي .

- 53وسائل الشيعة ٥٨: ٢٦٥ ط مؤسسة آل البيت.

- 54القلم: ٥١.

- 55النحل: ٩٠.

- 56تاريخ بغداد١: ٢٢٣.

- 57كتاب التبيين لأسماء المُدَلّسِيْنَ: ١٤ لسبط ابن العجمي ط الأولى حلب سنة ١٣٥٠ هجـ .

- 58المبسوط للسرخسي ٥: ١٣٩ــ١٤٠ و٣٠: ٢٩٧ ط أوفست دار المعرفة بيروت سنة ١٣٩٨هجـ .

- 59فتح الباري١٠: ٢٣٧ ــ ٢٤٥.

- 60دلائل النبوة ٧: ٩٢ ــ ٩٤.

- 61إرشاد الساري ٨: ٤٠٥.

- 62دلائل النبوة ٧: ١٤٢.

- 63الاتقان ١: ٤٠ .

- 64منتهى المطلب ٢: ١٠٠٣ ط حجرية .

- 65البقرة: ٢٨٦ .

- 66الإسراء: ٤٧.

- 67مفتاح الكرامة ٤: ٧٣ .

- 68الإسراء: ٤٧ .

- 69أحكام القرآن١: ٦٠.

- 70طه: ٦٦.

- 71طه: ٦٩.

- 72محمد: ١٦ ــ ١٧.

- 73مناقب ابن شهرآشوب ١: ١٢٥ ــ ١٢٦ ط الحيدرية .

- 74القلم: ٤ .

- 75الشرح: ٤.

- 76تفسير القرطبي ٢٠: ١٠٦ – ١٠٧ .

- 77التوبة: ٦٢.

- 78النساء: ١٣ .

- 79النساء: ٥٩.

- 80مريم: ٩٦.

- 81النساء: ٨٠.

- 82الفتح: ١٠.

- 83التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٢: ٥ ط عبد الرحمن محمد بمصر .

الفصل الثالث

في إمكانية خرق النواميس الطبيعية والشواهد على ذلك

دون أن يلحق بالكون الفساد

)اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأنهَارَ *وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(١ . (

أولاً: لابدّ لنا من إيمان:

نحن إذ نحاول تقريب صدور المعجزات أو الكرامات إلى الأذهان، لنثبت وقوع معجزتي انشقاق القمر وردّ الشمس، فلابدّ لنا أن نؤمن أولاً: بأنّهما خلقان مطيعان لأمر خالقهما ومدبّرهما كسائر مخلوقاته.

)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)(٢ . (

)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٣ .(

ونؤمن ثانياً: بأنّ خرق النواميس الطبيعيّة الكونيّة ـ بمعنى خرق النظام الطبيعي ـ على أيدي الأنبياء والرسل(عليهم السلام) لا يتم إلّا بإذن خاصّ من الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جاءَ أَمرُ اللَّهِ قضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ)(٤. (

ونؤمن ثالثاً: بأنّ الأنبياء(عليهم السلام) لم يكن فيهم من ادّعى لنفسه الإتيان بمعجزته من صنعه وبقدرته، بل كانوا يقولون إنّها من عند الله سبحانه وتعالى: (وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)(٥ . (

فإذاً نحن آمَنّا بأنّ الله تعالى هو الخالق والمقدّر، فهو القادر على تغيير ناموس ذلك النظام الذي أتقن صنعه، فيغيّره بقدرته آناً مّا استجابة لدعوة نبي من أنبيائه(عليهم السلام)، عند طلبه ذلك التغيير لمصلحة يراها، إتماماً للحجة على العباد، فأيّ محذور عقلي، أو أيّ تناقض، أو اختلال في سنن الطبيعة التي أتقن صنعها لو استجاب لدعائه نصرةً لأنبيائه ؟ دون أن يلحق بالكون الفساد.

نعم إنّما يكون ذلك التغيير الآني هو خرقاً لما هو مألوف عند الناس عادة، ولله خرق العادات، وهل إظهار المعجزة إلا خرق آني للنواميس الطبيعيّة المألوفة؟

ولما كانت الخوارق لسنن الطبيعة التي حدثت في الكون منذ تكوينه لا يمكن حصرها، ولا يحصيها إلّا من هو مبديها ومعيدها، جلّت قدرته وعظمت الآوه، وعدم العلم بها جميعاً لا ينافي في ادِّعاء الكثرة بعد أن وجدنا القرآن الكريم أشار إلى عدد منها في جملة من آياته .

كحدوث الطوفان أيام سيدنا نوح (صلى الله عليه وآله)، فهو في بدئه ونهايته آية من آيات ربّه الكبرى، قال تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً)(٦ . (

وتخلّف النار عن الإحراق كما في قصّة سيدنا إبراهيم (صلى الله عليه وآله): (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)(٧. (

وخروج الناقة من الحجر آية سيدنا صالح (صلى الله عليه وآله) :(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٨ . (

وانفلاق البحر لسيدنا موسى(صلى الله عليه وآله)، وَضَرْبُ طريقٍ يَبَسٍ فيه لبني إسرائيل، قال تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)(٩ (
وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَساً)(١٠. (

وتحوّل عصاه إلى أفعى تلقف ما يأفكون، ومطر السماء الجراد والقمّل والضفادع والدم، إلى غير ذلك من الآيات التي كانت في الأُمم السابقة.

وما وقع لنبينا(صلى الله عليه وآله) من الآيات التي فيها خرق لنظام الطبيعة كثيرة، ولعلّ من أهمّها الإسراء، والمعراج، وانشقاق القمر، وردّ الشمس إلى غير ذلك ممّا فيه دلالة على وقوع التغيير في السنن الكونيّة عند توفّر دواعيه من دون حاجة إلى تعليل وتفسير، ما دامت القدرة

الإلَهية هي المهيمنة على التسيير والتغيير (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)(١١) (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا)(١٢ .)

قال العالم الإنكليزي وليم جونز: القدرة التي خلقت العالم لا تعجز عن حذف شيء منه، أو إضافة شيء إليه، ومن السهل أن يقال عنه في أنّه غير متصوّر عند العقل، ولكن الذي يقال عنه أنّه غير متصوّر، ليس غير متصوّر إلى درجة وجود العالم(١٣.)

وقال الفيلسوف مالبرانشي: إنّما نرى نحن توالي الحادثات، ولا نرى الرابطة التي تربط أحد الطرفين بالآخر، فلماذا تبقى هذه الرابطة متخفية عنّا ؟ لكونها شيئاً الهياً لا يوجد مثله في المخلوق(١٤ .)

ثانياً: لآيات لقومٍ يعقلون:

قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(١٥ .)

»إذا أنعمت النظر في هذه الآية وجدتها تشير إلى أنّ كل شيء بتدبير، وأنّه مقصود، لأنّ تعاقب الليل والنهار يُحدث التغيرات الجوية، ويُحدث الرياح، ويَنشأ عن ذلك مواسم المطر والجفاف على نظام مستقر، ومعنى هذا أنّ حياة الكائنات وموتها مرتبطان بسير الأرض في مدارها، فهل هذا كله مصادفات بحتة ؟ أليست كل هذه الأمور مرتبطة بعضها ببعض؟

هذه كائنات كثيرة ويعمل كل منها في دائرته، وفي الوقت يعاون غيره من الكائنات، لتحقيق غرض واحد، وهي مجتمعة تحيي الأرض بعد موتها .

هذا ما يقوله العلم الحديث المؤيد بالتجارب في المعامل والمراصد ... على أنّنا إذا ألقينا نظرة شاملة على ما في الكائنات ألفينا أنّ كل كائن مرتبط بحياتنا، وأنّها جميعاً صادرة عن تدبير واحد، لها غرض واحد، وموجدها واحد، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ)(١٦) ...» (١٧. (

فمن الأجدر بنا النظر في آيات الرسل وبيّنات النذر بنظرة معتبر ومتفكر لنصدق في قولنا: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)(١٨. (

ثالثاً: من كان يعلم في عهد الرسالة ما هي الأنواء الجوية والمناخية:

لا شك أنّ معرفة ذلك كانت عند الأمة العربية ضئيلة، وكل ما عندهم هو بعض المعلومات البدائية بقدر ما عندهم من قوة ملاحظة شخصية، وهو بحكم موقع بلادهم وتمازجهم مع جيرانهم من الروم والفرس، وما يرونه من مظاهر الحياة حولهم، استفادوا خبرة بمعرفة ارتباط الكثير من شؤون الحياة بظواهر كونية، فعرفوا الفصول الأربعة، فكيّفوا حالهم بطبيعة الظروف المناخية، ومدى تقلّبها من مكان لآخر ومن زمان إلى آخر.

فكانت الرحلة في الصحاري أيضاً تزيدهم خبرة بالنجوم وبالأزمنة والأمكنة، بقدر قوّة ملاحظتهم لما يسيّرون به حالتهم الحياتيّة والبيئيّة، وفسّروا بعض الظواهر الكونية كالعواصف والرعد والبرق وحتى الخسوف والكسوف تفسيراً يتناسب ومداركهم، لعدم ذات يدهم من وسائل العلم يومئذٍ .

ولنا ـ تسامحاً ـ أن نقول:إن كان عند بعضهم من علم الفلك النظري والعملي بعض الشيء، فهم في أشعارهم وأمثالهم يذكرون الكواكب والنجوم، فالشمس والقمر والثريا وسهيل والزهرة والشعرى، كثر ذكرها، بل وحتى أنّ بعضهم كان يعبد بعضها(١٩)،وما النسيء عندهم وحساب السنين إلّا نتيجة ضبط الشهور والأيّام على الشمس والقمر.

ولما منّ الله تعالى عليهم بأن بعث في الأُميين رسولاً منهم، يُطَهِرُهُمْ ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وجاءهم بالآيات البيّنات، فرأوا في قرآنه عَجَباً، فآمن به من آمن فهدي، وكفر به من كفر فغوى، والسؤال كم هم الذين كانوا أهل معرفة متطوّرة، وإيمان بعلاقة الأرض مع السماء ؟ وقليل ما هم.

نعم ازدادوا علماً بعد الفتوحات واطلاعهم على تراث الآخرين، وعرفوا المراصد والمناظير، وفرّقوا بين الإشعاع الشمسي المائل والعمودي، ومدى تأثيره في طول النهار وقصره، فصاروا بعد ذلك بقرون يعرفون خطوط الطول والعرض، وأنّ طول النهار لا يكون متساوياً على جميع دوائر العرض.

فعند الخط الاستوائي يبلغ أقصى النهار (١٢) ساعة، وعند دائرة عرض 66(ْ) شمالاً أو جنوباً يبلغ (٢٤) ساعة، بينما طوله يبلغ (٢٠) ساعة عند دائرة عرض 63(ْ) شمالاً أو جنوباً.

وإنّ هذا التباين يؤدّي إلى زيادة الفترة التي تكسب بها الأرض الاشعاع الشمسي، ولذا نجد الفصل الصيفي الحار في السنة في تلك الأقاليم، يكون مصاحباً للفترة التي يكون فيها النهار طويلاً، في حين نجد فصل الشتاء البارد يكون فيه النهار قصيراً، كل هذا لم يكن يعرفه المسلمون الأولون، فضلاً عن الكفّار في أول عهد الرسالة حين قالوا للنبي(صلى الله عليه وآله) أن يدعوا القمر فينشق وقد فعل وقال اشهدوا اشهدوا، كما سيأتي بيان ذلك في الباب الثاني.

ونحو ردّ الشمس، كما يأتي في الباب الثالث، بل ولم يعرفه حتى من جاء بعدهم من المنكرين لتلك الآيات حين قالوا: لو كان قد حدث ذلك لرآه العالم كله .

وأنّى لهم معرفة ذلك وهم لا يعلمون بأنّ النهار الذي هم فيه هو ليل عند غيرهم، والصيف الذي هم فيه هو شتاء عند غيرهم، وربيعهم هو خريف عند غيرهم، فكيف يطلبون ما ظهر في سمائهم أن يظهر في سماء غيرهم في نفس ذلك الوقت ؟ !

رابعاً: آيات كونية في السماء والأرض:

ولزيادة تنوير القارئ نرجوه أن يقرأ قوله تعالى في سورة الكهف(٢٠) :(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . (

ولنتأمّل في قوله تعالى: (إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ) وليعرف معنى (تَّزَاوَرُ) وهو كما في اللغة: بمعنى مال عنه، فيكون تميل الشمس عنهم ذات اليمين، ثم قوله تعالى: (و َإِذَا

غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) أي تميل عن شمالهم، لأنّها لو طلعت عليهم قبالتهم لأحرقتهم وثيابهم، فكانت تميل عنهم طالعة وغاربة وجارية، فلا تبلغهم فتؤذيهم بحرّها وتغيّر ألوانهم وتبلي ثيابهم.

ففعل الشمس هذا هو آية من آيات الله تعالى، كما هو صريح قوله تعالى في نفس الآية المذكورة آنفاً: (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) ولو لم يكونوا في معرض الشمس شروقاً وغروباً ومع ذلك لم تصبهم الشمس، ولو لم تكن تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال لكانوا تعفّنوا، أليس هذا خرقاً لمسيرة الشمس عادة، ولو لم يكن في ذلك من آية لما ذكرها القرآن المجيد.

فقدرة القادر القدير هي التي جعلت الشمس تزاور عن كهفهم، وتميل في سيرها الطبيعي من دون أن يحسّ بها سائر الناس، وهم يعيشون تحت نورها كل يوم، وهي هي القدرة التي تحبس الشمس أو تردّها إلى الأفق عند اقتضاء الحكمة بحدوث تلك الآية، وهي المعجزة من دون أن يحسّ بها جميع أفراد من تحت الشمس، وسيأتي من الشواهد النقليّة على وقوع المعجزتين للنبي(صلى الله عليه وآله) ـ شق القمر وردّ الشمس ـ فهما صنوان في الذكر الحكيم، جلّ خالقهما ومقدّرهما أحسن تقدير .

ولنا في حدوث الكسوف والخسوف، وهما من الظواهر المعتادة رؤيتها في غالب السنين، ومع إحساس الناس الذين هم في مقابلة الجهة التي يحدث فيها الكسوف والخسوف، فإن غيرهم ممن ليسوا في واجهتها لا يحسّون بحدوثهما، وهذا أمر محسوس بالوجدان، ولا تحتاج معه إلى إقامة البرهان.

ومن ساوره الشك في ذلك فليلمّ قليلاً بحال ساكني القطبين الشمالي والجنوبي من الكرة الأرضية، حيث ينعدم النهار ستة أشهر في أحدهما، ومقابله انعدام الليل ستة أشهر في الآخر، (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ)(٢١.(

وقال تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٢٢. (

من خلال هذه الآيات الكريمة يمكننا أن نلمّ إجمالاً بتحرّكات الشمس والقمر والكرة الأرضية ممّا أدركه علماء الفلك بعد ذلك بقرون، فالقرآن الكريم صرّح بأنّ الشمس تجري إلى حد معيّن، وهذا ما أدركه العلم الحديث بأنّ الشمس تتحرّك مع مجموعتها الشمسية بسرعة ١٩ كيلو متراً في الثانية في اتجاه نقطة تقع في مكان ما في كوكبة الجاثي .

وصرّح القرآن الكريم في الآية الثانية بأنّ الشمس والقمر والأرض تتحرّك، ولكن غير الحركة الأولى حيث قال: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) فالشمس لها حركة أخرى وهي دورانها حول نفسها، كما تدور الأرض حول نفسها، وكذلك القمر له حركة يدور حول نفسه، ودوران الأرض أشار إليه بقوله تعالى: (وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) فدوران الأرض حول نفسها هو الذي يسبب الليل والنهار بانتظام، هذه حقائق علميّة أشار إليها القرآن قبل أن يدرك العلم عنها شيئا .

خامساً: ماذا قال العلم الحديث في المقام؟

ومن الخير إلمام القارئ بماذا قاله العلم الحديث عن هذا، لنصل إلى الحديث عن الإعجاز في مسألتي انشقاق القمر وردّ الشمس .

لقد ذكر العلم الحديث أنّ الفصول الأربعة تنشأ نتيجة لدوران الأرض حول الشمس خلال العام في مدار يميل مستواه على خط الإستواء الأرضي بزاوية قدرها (23،5)تقريباً، وهي نفس الزاوية المحصورة بين محور دوران الأرض حول نفسها ومحور دورانها حول الشمس، فيترتب على ذلك تنقل الشمس في حركة ظاهرية مكوكية شمالاً وجنوباً حول خط الإستواء الأرضي؛ لتصل أشعّتها إلى الأطراف الشمالية والجنوبية لكوكب الأرض خلال فترات زمنية معيّنة .

ولنا أن نتخيّل لو كانت زاوية الميل هذه مساوية للصفر، فماذا تكون النتيجة؟ طبعاً سوف تتعامد الشمس فقط على خط الإستواء، ولا تصل أشعتها إلى أطراف الأرض الشمالية والجنوبية لكوكب الأرض، الأمر الذي يؤدّي إلى تراكم الجليد عند قطبي الأرض، وزيادة مطردة في مساحة المناطق القطبية المتجمّدة، بينما تزداد حرارة المناطق الاستوائية إلى حدود خطيرة غير محتملة، تعمل على انتشار الجفاف والتصحّر في هذه المناطق لتصبح جرداء لا نبات فيها ولا ماء.

وعلى العكس يؤدّي انحراف الشمس شمالاً وجنوباً حول خط الاستواء إلى تغيّرات دورية في درجة الحرارة، والظروف المناخية بصفة عامة، تعمل على تلطيف الجو عند العروض المختلفة على الأرض، ويتغيّر تبعاً لذلك الغطاء النباتي، ممّا يتيح للأحياء التمتّع بظروف معيشيّة متنوّعة ومتجدّدة، حيث تتنوّع المحاصيل والثمار التي تعيش عليها الأحياء من آن لآخر .

وخلال الرحلة السنويّة للأرض حول الشمس تتعامد الأشعة الشمسيّة على خط الإستواء مرتين في العام .

احداهما: عند بداية الربيع في ٢١ مارس، ويعرف هذا الموضع بنقطة الإعتدال الربيعي .

أما المرة الثانية: فتحدث عند بداية الخريف في٢١ سبتمبر، وتعرف بنقطة الإعتدال الخريفي، وتنحرف الشمس شمالاً تتعامد على مدار السرطان (خط عرض ٢٣،٥ ْ شمالاً) عند بداية الصيف في ٢١ يونيو، حيث تقع الشمس عند نقطة الإنقلاب الصيفي.

وتقع الشمس في نقطة الإنقلاب الشتوي في ٢١ ديسمبر، حيث تتعامد أشعتها على مدار الجدي (خط عرض ٢٣،٥ ْ جنوباً) وفي حقيقة الأمر يوجد فصلان في آن واحد على الكرة الأرضية، فعندما يحلّ الصيف في نصف الكرة الشمالي، يحلّ الشتاء في نصف الكرة الجنوبي، وعندما يحلّ الربيع في أحد نصفي الكرة الأرضية،يحلّ الخريف في النصف الآخر .

ويختلف طول النهار والليل خلال الفصول الأربعة حيث يطول النهار ويقصر الليل صيفاً، ويحدث العكس في فصل الشتاء، أما الإعتدالان الربيعي والخريفي، فيتساوى عادة طول الليل والنهار بواقع ١٢ ساعة لكل منهما .

وإذا ما اتجهنا إلى القطب الشمالي في فصل الصيف، نجد أنّ طول النهار يتزايد تدريجياً بينما يتناقص طول الليل في نفس الوقت، حيث يمتدّ طول النهار عند نقطة القطب الشمالي صيفاً إلى ستة شهور .

وعندما يحلّ النهار في منطقة القطب الشمالي يحلّ الليل لحظياً في منطقة القطب الجنوبي، ويستمرّ لستة شهور أيضاً ، وتظل الشمس دائمة الإشراق خلالها على الدائرة القطبية (خط

عرض ٦٦،٥ ْ شمالاً) عند نقطة الإعتدال الربيعي ٢١ مارس، وتستمر في إشراقها حتى تغرب في ٢١ سبتمبر عند نقطة الإعتدال الخريفي في ٢١ سبتمبر.

ونظراً لاختلاف ميل الأشعة الشمسيّة الساقطة في موقع ما على الأرض خلال فصل معيّن من السنة، تتفاوت درجة الحرارة والعوامل المناخية الأخرى من منطقة إلى أخرى على سطح الأرض، ويؤدّي ذلك إلى تنوّع في النباتات والمحاصيل والثمار التي تعين الأحياء على الأرض في سدّ حاجتهم من المقومات الحياتية (٢٣.)

فهذا الذي اكتشفه العلم الحديث بعد عدّة قرون بوسائله العلمية التقنية، كشف عنه القرآن الكريم من قبل بأنّ النظام الشامل في الكون سائر على قانون إلهِيّ لا يتخلّف، وأنّ النظام الشمسي جزء من ذلك النظام الشامل، تسير عليه الكواكب بحساب دقيق لا يأذن باصطدامها، مع أنّ بعض تلك الكواكب غير منتظم في سيره، ومع ذلك فهو غير مغلوب بقانون الجاذبية لأحد من تلك الكواكب، إلا إذا أراد ذلك خالق الكون، ومن يجهل المذنبات والشهب والنيازك التي يراها الإنسان بالعين المجردة ؟ وهي معلومة للإنسان من قبل أن يعرف المراصد ووسائل الاكتشافات الحديثة من مرصد ومنظار .

سادساً: وقفة أدبية عابرة وذات عبرة:

قال أبو تمام الطائي - وهو شاعر عربي كبير وشهير - في قصيدة له يمدح بها المعتصم في فتح عمورية وهي من روائع الشعر العربي وأولها:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ　　في حدّهِ الحدّ بين الجدِّ واللعب

حتى قال فيها :

أين الرواية أم أين النجومُ وما　　صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كَذبِ

تخرّصاً وأحاديثـاً مُلفقّة　　ليست بنبع إذا عُدّت ولا غَرَبِ

عجائباً زعموا الأيامَ مُجفِلة عنهنّ في صَفر الأصفار أو رَجَب

وخوّفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ إذا بدا الكوكب الغربيّ ذو الذنب

وصيّروا الأبرج العُليا مُرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب

يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ ما دار في فلكٍ منها وفي قطبِ

لو بيّنت قطّ أمراً قبل موقعه لم تُخفِ ما حلّ بالأوثان والصُلب(٢٤)

قال الدكتور أحمد زكي مدير جامعة القاهرة في كتابه (مع الله .. في السماء) (٢٥) تحت عنوان مذنب أبي تمام، وذكر بيتين من الشعر المتقدّم على النحو التالي: الرابع ثم الثاني، وقال: وهي - المذنبات - كما قال شاعرنا العربي الكبير، قد أثارت الناس أجيالاً طوالاً وأذعرتهم وأفزعتهم، ورأوا فيها نذر الشر وسوء الطالع، بل وعلامة على قيام الساعة، وانتحر قوم رهباً ، وفرّت ملوك من عروشها هرباً، وتوقفت حروب تطيرّاً.

ورحم الله شاعرنا العربي إذ قال عنها في ذلك العهد البكر، في القرن التاسع الميلادي، إنّها تخرّص وأقاويل، وخرافات وتهاويل، ولقد ظلّ القدماء يرجمون فيها بالظن ويخافون، قال أرسطو: إنّها أنفاس تخرج من الأرض، فلا تكاد تصعد إلى الطبقات العليا من الجو حتى تلتهب .

وظلّ الناس يرون ما رأى أرسطو إلى نحو القرن السابع عشر، وبدأت بشائر العلم الأولى تهل، فرأى العلماء إنّها أشياء تبعد عن الأرض بُعداً أكبر كثيراً من بُعد القمر، فما هي للأرض بأنفاس، ثم رأوا أنّها تدور حول الشمس، مقبلة عليها، فإذا انثنت حولها بَعُدت مدبرة عنها . فهي تدور في قطع مخروطي عظيم، الشمس بؤرته، وقال آخرون: بل هي تدور في دائرة .

مذنب هالي:

ثم قال: حتى إذا جاء العالم الفلكي الرياضي أدمند هالي - ولد عام 1656ومات عام ١٧٤٢- اكتشف مذنّبه عام ١٦٨٢ الشهر الذي أطلقوا عليه اسمه، وعُرف في التاريخ بأنّه مذنب هالي، ودرس مذنّبه هذا، ودرس سجلات ظهور مذنبات سبقت ومداراتها .وخرج من ذلك على أن مذنباً

ظهر في السماء عام ١٥٣١، وآخر عام ١٦٠٧، ومذنّبه هو عام ١٦٨٢ كلها مذنب واحد، يذهب ويختفي ثم يعود ويظهر مرة كل نحو من ٧٦ عاماً .

وأنّ هذه المذنبات تدور حول الشمس في مدار بيضاوي اهليلجي، كبير التفرطح، الشمس في احدى بؤرتيه (؟؟؟) وهو فعل أكثر من ذلك . تنبّأ بأنّ هذا المذنب سيعود بناءً على ذلك عام ١٧٥٩، ومات الرجل عام ١٧٤٢ . وجاء عام ١٧٥٩ بعد موته، وانتظر الناس مجيء هذا المذنّب، فإذا به يجيء ولا يخلف موعداً .

ومن الأحياء بيننا من رآه عام ١٩١٠، وهم يذكرون ما أثاره ظهور هذا المذنّب، مذنب هالي عند ذاك في مصر وغير مصر، من مخاوف، كانت أصداء قليلة ظلّت تتردّد من أعماق الماضي البعيد . وعام ١٩١٠كان موعد مجيئه، وهو بين عام ١٧٥٩ وعام 1910ظهر مرة واحدة كانت عام ١٨٣٥.

وقبل مجيء الفلكي هالي، أثبتت السجلات ظهور هذا المذنّب في دوره هذا رجوعاً إلى الوراء، إلى عام ٩٨٩ م وأقرأ بيت أبي تمام، فيخطر لي أن مذنّب أبي تمام هذا، bذلك الكوكب الغربي والذنب vما هو إلا مذنّب هالي.

فهو لابدّ ظهر قبل عام ٩٨٩ بـ (٧٦ عاماً) ، أي لابدّ ظهر عام ٩١٣، ثم لابدّ قبل هذا العام بـ (٦٧ عاماً) أُخرى أي عام ٨٣٧ م أي وأبو تمام في أوج حياته الشعرية القصيرة، أي وهو ابن ٣٤ عاماً، فهو مات وعمره ٤٢ عاماً .

نفى أبو تمام الخوف من هذا المذنّب وأشباهه، نفاه هذا الشاعر السقّاء الذي كان يدور بالماء على الناس في جامع عمرو بالفسطاط ، نفاه عام ٨٣٧ م، ونفاه شعراً .

ونفى هالي الخوف عن هذا المذنّب وأشباه له، نفاه ذلك العالم خريج جامعة أكسفورد، نفاه عام ١٦٨٢ونفاه علماً .

وقال أيضاً في ص ١٥٤: وقد مرّ مذنب هالي بالأرض عام ١٩١٠، وفي الليلة التاسعة عشر من مايو، فسحب ذيله على سطح الأرض واجتمع العلماء حيث الذيل يفحصون ويسجلون، ومضت الليلة فما رأوا شيئاً، ولا سمعوا شيئاً، ولا قاسوا شيئاً، ومرّ الذيل فيهم فلم يصب منهم حساً .

ومن العلماء من قدرّ أنّ كتلة المذنّب لا تزيد عن جزء من مليون من كتلة الأرض، ومع هذا فهو في هذه الحدود قد يبلغ ملايين كثيرة من الأميال الطوال .

وقال أيضاً: وقد ينفلق رأس المذنّب فلقتين، فينتج عن ذلك مذنّبان، حدث ذلك في مذنّب بيلا، ودورته ٦ و ٦ من السنوات . حدث هذا عام ١٨٤٦، ولما حان موعده عام ١٨٥٢عاد المذنّبان معاً، قد تباعد ما بينهما . ومضت دورات ثلاث بعد ذلك لا يعثر عليه، فلما حانت الدورة الرابعة، صادف أنّ الأرض تمرّ بمداره، فعثروا مكانه، في الطريق الذي وجب أن يسلكه، وفي الموعد المرتقب على شهب ناصعة رائعة، وجاءت الدورة التالية فرأوا مكانه شهباً أيضاً، إذن لقد تكسّر المذنّب فلم يعد إلّا حطاماً .

سابعاً: لماذا الحديث عن المذنّبات ؟

لأنّ الإنسان غير المؤمن، بل وحتى ضعيف الإيمان، أصبح يتطلّب البرهان المادي المحسوس ليؤمن به قبل أن يقتنع بما وراء المادة من قوة قاهرة تدبّر أمر الكون عن طريق الإيمان بالغيب.

بل لقد سرى الداء إلى بعض المؤمنين من حيث لا يشعرون، فصار حين يسأل عن معجزتي شق القمر وردّ الشمس، فيجاب بما في الكتاب والسنّة، يبقى واجماً على أحسن تقدير، وإلّا فهو يظل في دوامة النقاش، أما إذا أجبته بأنّ وكالة (ناسا) في أميركا ذكرت هذا في مكتشفاتها، أو مرصد (فلوريدا) ذكر هذا في أخباره آمن بذلك من دون تردّد، لماذا هذا ؟ إنّه من ضعف الإيمان .

ولما كانت المذنّبات عرفها الإنسان منذ أن عرف تاريخه، وحتى اعتبر ظهورها نذير شر مستطير وشيك الوقوع، فهو يتطيّر منها، ولسنا بحاجة إلى بيان حول سخف تلك الرهبة من ظهور المذنّب، وإنّما الحاجة أن نتابع ما يقوله علماء الفلك في تلك المذنّبات وظهورها، إذ لا يخلو عام بل ولا شهر في الغالب من مذنّب في متناول المرقب، وسمّي بعضها باسم مكتشفها كمذنّب (أنكى) ومذنّب (هالي)، والمجلات الفلكية تنشر أسماء المذنّبات بين حين وآخر، المنتظر ظهورها ومواعيدها، أما المذنّبات الكبيرة فالصحف والإذاعات عادة تنشر عنها .

ومعظم المذنّبات تتكرّر رؤيتها مرة بعد مرة، ويمكن اعتبارها من جملة المنظومة الشمسية التي أرضنا بعضاً منها، لأنّ لها مدارات محدّدة حول الشمس هكذا يقول الفلكيّون، وإن لم تحمل الصفات التي تتحلّى بها الكواكب والأقمار، لأنّ أشكالها غير ثابتة تتغيّر بين حين وآخر، ومدارات معظمها مفلطحة شديدة الاستطالة، وهي لا تسير دائماً في منطقة البروج، فقد تأتي من أيّ اتجاه في السماء.

وأول ما يبدوا المذنّب بقعة غبشاء لا نميّز منها إلّا الرأس أو اللمّة لأنّه مثل كتلة شعر، وفي بعض الأحيان نرى نقطة صغيرة مشرقة من الضوء منغمسة في اللمّة تسمّى النواة. ويتراوح قطر اللمّة بين (٣٠٠٠٠) مليون ميلاً ، وإذا صار المذنّب على بعد (٢٥٠) مليون ميلاً ، من الشمس حتى تزداد إضاءة اللمّة، ويزداد بريق النواة إذا كان في المذنب نواة .

ثم تأخذ اللمّة بالإنتفاش، وتطرد كثيراً من المادة المحيطة بها إلى الجهة البعيدة عن الشمس لتضع الذَنَب، ربما كان الضغط الإشعاعي من الشمس هو الذي يطرد هذه المادة، فالذنب دائماً إلى الجهة البعيدة عن الشمس.

والذنب هو المنظر المدهش حقاً في المذنّب، فهو يمتد في السماء ملايين عديدة من الأميال، ويحتلّ بقعة من الفضاء لا يجاريه إلا عملاق ضخم من النجوم أو عنقود نجومي أو مجرة، فهو ظاهرة غريبة، فهو رقيق جداً بحيث لا يخفي ما وراءه من نجوم، وهو دائماً يحافظ على اتجاه معين، فهو يشير إلى الجهة البعيدة عن الشمس، وقد ينقسم أحياناً أمام العين المجردة إلى قسمين أو أكثر .

ومن الذي ينكر رؤية الشُهب التي تهوي كنجم يخرّ من السماء كالنجم الثاقب؟ ومن الذي ينكر رؤية المذنّبات التي ترى بالعين المجرّدة، فضلاً عمّا لا تراه إلّا المراصد والمناظير، فترى بوضوح أذنابها الطويلة، وحين تتقاطع الأرض في مدارها مع مدار المذنّب تتساقط الشهب على الأرض لآقْتِرابها من نطاق جاذبية الأرض، فتهوى بسرعة تقارب ٣٠ ميل في الثانية، ترتفع حرارتها بالإحتكاك بجوّ الأرض فتصل إلى درجة الإشتعال.

وهي كلها عادة إلّا الضخم منها تتبخّر في أثناء ذلك بحيث لا يصل شيء منها إلى الأرض، ويشتعل عادة الشهاب على ارتفاع ١٠٠ ميل عن سطح الأرض، ويتلاشى على ارتفاع أكثر من ثلاثين ميلاً.

والآن فلنتذكّر ما مرّ بنا عن مذنّب هالي، وما قاله أبو تمام الطائي الشاعر العربي فيه، وما قاله هالي الفلكي الإنجليزي فيه حتى سمّي باسمه، وقد ذكر الدكتور عبد الرحيم بدر مجموعة من المذنّبات وأسماءها وأوقات ظهورها، فمن أرادها فليرجع إلى كتابه (٢٦) كما رجعت إليه فيما تقدّم من المعلومات باقتضاب.

ولقد مرّ بنا قول الدكتور أحمد زكي في كتابه مع الله في السماء عن مذنّب هالي، وقد مرّ بالأرض ١٩١٠، وفي الليلة التاسعة عشرة من مايو فسحب ذيله على سطح الأرض، واجتمع العلماء حيث الذيل يفحصون ويسجلون، ومضت الليلة فما رأوا شيئاً، ولا سمعوا شيئاً، ولا قاسوا شيئاً ، ومرّ الذيل فيهم فلم يصب منهم حسّاً.

فبماذا يفسّر المنكرون لمعجزتي شق القمر وردّ الشمس، وأنّهما لو كانا لرآهما جميع الناس، فهذا مذنّب هالي قد رآه من كان يحسب له حسابه من الفلكيين، ولما مرّ بالأرض حتى سحب ذيله على سطح الأرض اجتمع العلماء حيث الذيل يفحصونه ويسجلون، ومضت الليلة فما رأوا شيئاً، ولا سمعوا شيئاً، ولا قاسوا شيئاً، ومرّ الذيل فيهم فلم يصب منهم حسّاً ؟

فكيف يتوقّعون أن يرى معجزتي شق القمر وردّ الشمس جميع الناس، وهما وقعا في جهة من الأرض على خط عرض مختلف عمّا هم عليه من خطوط أُخرى بعداً وقرباً من الشمس.

فهل يعقل أن يراه من كان على غير ذلك الخط من العرض، كمن هو عند أحد القطبين الشمالي والجنوبي مثلاً، إنّه مكابرة وعناد، وهذا أمر محسوس بالوجدان، فحدوث المعجزتين إنّما يحسّ بهما من كان مقابلاً لجهتهما حين الحدوث، وملتفتاً إلى ذلك، لا من هو في غفلة عنها.

* * *

الهوامش

- 1إبراهيم: ٣٢ – ٣٤.

- 2الأنعام:٧٣ .

- 3الأنبياء: ٣٣.

- 4غافر: ٧٨.

- 5العنكبوت: ٥٠ .

- 6الفرقان: ٣٧.

- 7الأنبياء: ٦٩.

- 8الأعراف: ٧٣.

- 9الشعراء: ٦٣.

- 10طه: ٧٧.

- 11البقرة: ٢٥٥ .

- 12النساء: ١٢٦.

- 13كبرى اليقينات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ٢٤٢ ط الثانية نقلاً عن كتاب موقف العقل والعلم ٢: ١٢٣.

- 14نفس المصدر عن المرجع نفسه ٤: ٣٤.

- 15البقرة: ١٦٤.

- 16آل عمران: ١٩١.

- 17محمد المثل الكامل تأليف محمد أحمد جاد المولى بك:١٧١ ط الاستقامة بمصر سنة ١٣٧١هجـ .

- 18آل عمران: ١٩١.

- 19بلوغ الأَرب للآلوسي ٢: ٢٣٧ – ٢٤٠ ط الثالثة مطابع دار الكتاب العربي بمصر .

- 20الكهف: ١٧ .

- 21الأعراف: ٥٤.

- 22يس: ٣٨ – ٤٠.

- 23الفصول الأربعة مقتبس من مواقع الانترنيت .

- 24شرح ديوان أبي تمام للخطيب التبريزي ١: ٤٧ 50 – ط دار المعارف بمصر.

- 25مع الله في السماء: ١٥٢ ط دار الهلال.

- 26دليل السماء والنجوم : ٧١ ط دار الهلال بغداد .

الباب الثاني

في معجزة شق القمر

والكلام في ذلك من خلال بدايات تمهيدية، ثم في مبحثين :

المبحث الأول: من هم النفاة ؟ وما الذي قالوه ؟

المبحث الثاني: مع المثبتين وفيه أربعة محاور :

الأول: ما هي أدلّة الإثبات عند المفسّرين ؟

الثاني: ما هي أدلّة الإثبات عند المحدّثين ؟

الثالث: ما هي أدلّة الإثبات عند المتكلّمين ؟

الرابع: ما هي أدلّة الإثبات عند المؤرّخين ؟

خاتمة: ماذا عن هذه المعجزة في العلم الحديث ؟

والآن إلى بدايات تمهيديّة بين يدي الباب :

الأُولى - خير ما نفتتح به الباب، آي من الذكر الحكيم في الكتاب المجيد . قال الله تعالى: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ *وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) (١ .)

لقد تقدّم الحديث في الباب الأول عن المعجزة بما أحسب فيه الكفاية في حدود ما أنعم الله تعالى به علينا من بيان (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (٢) وانّي أعترف بقصوري عن بلوغ أقصى المنى، وقد قال تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً) (٣) وقال سبحانه وتعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (٤ .)

والآن لنقرأ شيئاً عن معجزة شق القمر، وهي مسألة يجب أن تبحث بعناية بالغة، تعتمد حجج الإثبات عن طريق الكتاب والسنة، كما يلزم أن نلمّ بما عند النفاة من حجة، ولا مانع من الاستئناس بما في العلم الحديث مما يوضّح لنا المزيد من المعلومات التي تؤيد ما قاله المثبتون، فإنّ كثيراً من الناس أصبحوا ينساقون مع إعلام وكالات الفضاء ويؤمنون بما تقوله وكالة ناسا الأمريكية، أو فيما ينشره مرصد فلوريدا، أو غيرهما من سائر المراصد والوكالات الفضائية العالمية .

ولسنا ممّن يحاول تقليل أهمية ما تنشره تلك الوكالات، ولكن مهما بلغوا في التقدّم العلمي، وأُتيح لهم النفوذ في أقطار السماوات بسلطان، فلا يزالون في مرحلة النظريات، والنظرية ربما تتبدّل عند اكتشاف المجهول فعلاً المعلوم غداً .

والطريقة التي ينبغي أن نعتمدها نحن كمسلمين في الاستدلال على صحة وقوع معجزة شق القمر، هي الإعتماد على القرآن المجيد والسنّة النبوية، وما صح من أخبار لا تصادم ما ورد فيهما، وبهذه الطريقة السليمة نصل بطبيعة الحال إلى نتيجة مقنعة، يقرّها العقل، إذ تفرضها الحجة بالحكمة الحسنة لمن يفقهها .

والله سبحانه وتعالى لم يتعبّد الإنسان بالإيمان إلّا عن طريق العقل، مضافاً إلى تنويره الفكر بصحيح النقل عن طريق الوحي، فيدرك المرء بالبرهان مبلغاً من المعرفة يستنير به في الكشف عن سنن الوجود وعجائب الكون .

وهذه هي السبيل الأمثل التي دعا إليها نبينا (صلى الله عليه وآله(، وسار عليها مبلّغاً دعوته عن طريق قرآنه الخالد الذي هو معجزة عقلية قاهرة باهرة، قبل أن يكون معجزة قولية في نُظمه وأحكامه .

وقد اعترف بفضله من آمن به ومن لم يؤمن به، بل وحتى تجاوز في إعجازه أن بهر الملحد فضلاً عن الموحّد، وإليك نموذجاً مما قاله بعضهم من ملحد وموحّد .

الثانية ـ النبي الكريم وقرآنه المجيد بين ملحد وموحّد:

لم أجد أبدع مما قاله الدكتور شبلي شميّل وهو عالم طبيعي مشهور بالإلحاد، وقد مرّ ذكره في الباب الأول، وهو مع ما كان عليه من عدم الإيمان برسالة النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) إلّا أنّه كان معجباً به وبالقرآن، مبهوراً بإعجازه، فقال :

دع من محمد في صدى قرآنـــه ما قد نحاه للحمــة الغايـات

إنّي وإن أك قد كـفرت بـديـنــه هل أكفرنَّ بمحكم الآيــات

ومواعظ لو أنّهـم عملـوا بـهــا مـا قيدّوا العُمران للعــادات

من دونه الأبطال في كل الورى من حاضر أو غائب أو آت(٥)

فالرجل على كفره لم يجد أمامه غير الاعتراف بأنّ العقل البشري لا يغني وحده إلّا ما كانت الآيات المحكمات تعضده، وهي من رسالة محمد (صلى الله عليه وآله) التي دعا الناس إليها، ولو أنّهم عملوا بها ما قيّدوا العمران للعادات، لذلك فهو مفضَّل على كل الأبطال في الورى سواء من كان حاضراً أو غائباً قد مرّ في التاريخ، أو آت من بعد، فكلهم دون محمد النبي الأمي(صلى الله عليه وآله . (

هذا ما قاله الملحد في النبي (صلى الله عليه وآله) وفي قرآنه، والآن إلى مؤمن موّحد وما قاله في النبي(صلى الله عليه وآله) وقرآنه :

ولم أجد موحّداً قال قولاً خيراً مما قاله البوصيري في قصيدته البردة، فأورد منه في المقام عدّة أبيات تبرّكاً بذكره وتيمّناً باسمه (صلى الله عليه وآله:(

مـحمد سيــد الـكونين والثقلين والفريقين من عُرب ومن عجم

نبيّنا الآمر الناهي فلا أحد أبرَّ في القول لا منه ولا نعم

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مقتحم

دعا إلى الله فالمستمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم

فاق النبيين في خَلقٍ وفي خُلُقٍ ولم يدانوه في علم ولا كرَم

وكلهم من رسول الله ملتمس غَرَفاً من البحر أو رشفاً من الدِيم

وواقفون لديه عند حدّهم من نقطة العلم أو من شَكلَة الحِكم

فهو الذي تمَ معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسَم

منزّه عن شريك في محاسنه فجوهرُ الحسنِ فيه غيرُ منقسم

دعْ ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عِظم

فإنّ فضل رسول الله ليس له حدّ فيعربَ عنه ناطق بفمِ

لو ناسبتْ قدرَه آياته عِظماً أحيى اسمُهُ حين يُدعى دارسَ الرمم

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نِهم

أعيى الورى فهمُ معناه فليس يُرى للقَرب والبعد منه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بُعُدٍ صغيرةً وتكلّ الطرفَ من أمَم

وكيف يُدرِك في الدنيا حقيقته قومٌ نيامٌ تسلّوا عنه بالحُلم

* * *

أقسمت بالقمر المنشقّ إنّ له من قلبه نسبة(٦) مبرورة القسَم

آياتُ حق من الرحمن مَحدَثة قديمة صفة الموصوف بالقَدم

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذْ جاءت ولم تدم

محكمات فما تبقين من شُبهٍ لذي شقاق وما تبغين من حكم

ما حوربت قطّ إلا عادَ من حَربٍ أعدى الأعادي إليها ملقي السَلم

ردّت بلاغتها دعوى معارِضِها ردّ الغَيورِ يدَ الجافي عن الحَرَم

لها معان كموج البحر في مددٍ وفوق جوهره في الحسن والقيم

فما تعدّ ولا تحصى عجائبها ولا تسامُ على الإكثار بالسأم

قرّت بها عين قاريها فقلتُ ل لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم

إن تتلها خيفة من حرّ نار لظى أطفأتَ نار لظى من وردها الشَبَم(٧)

كأنّها الحوض تبيّض الوجوه به من العصاة وقد جاؤوه كالحُمم

وكالصراط وكالميزان معدلة فالقسط من غيرها في الناس لم يَقَم

لا تعجبنَ لحسودٍ راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ ويُنْكِر الفم طعمَ الماء منْ سَقَم(٨)

هذان انطباعان متفقان هدياً، من شخصين مختلفين عقيدة وسلوكاً، من ملحد وموّحد، اتفقا على أنّ القرآن فيه من الآيات البيّنات ما فيه هدى للعالمين، ونقول فيه أيضاً كم من أسرار تكتنف جوهر ذات الإنسان وهو لا يعلمها، ممّا هو خارج نطاق المحسوس لديه وما هو مشاهدٌ للعيان عنده، فتلك الروح التي بها قوامه فهو في دوامة السؤال عنها، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً .(9)(

فإنّ حقيقة الروح لا يزال أمرها مجهولاً لدَى الإنسان، وإنّما هي من الأسرار الخفيّة التي يستحيل رؤيتها تحت المجهر، أو معرفة حقيقتها حين دخولها عالم الجسد، أو مفارقتها له عند النوم أو الموت، فضلاً عن تمايزها لدى الأفراد، ثم هل هي النفس أو أنّها هي غيرها، ولكل من النفس

ومن الروح نحو ارتباط بالجسد، ويبقى الإنسان هو ذلك المجهول في أكثر من ناحية (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)(١٠ . (

وتبقى اللا أدرية طاغية على العلم بحلّ ذلك الطلسم، الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ويبقى القرآن هو المعجزة الخالدة وفيه تبيان كل شيء كما قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(١١ . (

ويبقى هو يفضل سائر معجزاته، بل وحتى سائر معاجز الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، لأنّ تلك المعجزات كانت حسيّة، فهي محدودة بحدود الزمان والمكان الذي ظهرت فيه، فانقضت بانقضاء زمان حدوثها، فلم يشاهدها إلّا من حضرها، ولولا القرآن الذي أخبرنا عنها لضاع ذكرها أيضاً.

بينما القرآن فاق بنواحي إعجازه بقاؤه وحْياً وحَياً من الحياة وغضّاً طريّاً كما انزل يوم أنزلت آياته من لدن حكيم خبير، ولا يبعد شاهداً في المقام ما رواه الشيخان ـ البخاري ومسلم ـ عنه (صلى الله عليه وآله) قال: (ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة)(١٢.(

وقد نقل عن الإمام الشافعي أنّه قال: ما أعطى الله نبيّاً شيئا إلّا وأُعطي محمداً (صلى الله عليه وآله) ما هو أكثر منه، فقيل له: أُعطي عيسى بن مريم إحياء الموتى، فقال الشافعي: حنين الجذع أبلغ، لأنّ حياة الخشبة أبلغ من إحياء الميت، ولو قيل: كان موسى فلق البحر عارضنا بفلق القمر، وذلك أعجب لأنَّه آية سماوية .

وإن سئلنا عن انفجار الماء من الحجر عارضناه بانفجار الماء من بين أصابعه(صلى الله عليه وآله)، لأنّ خروج الماء من الحجر معتاد، أما خروجه من اللحم والدم فأعجب، ولو سئلنا عن تسخير الرياح لسليمان عارضناه بالمعراج(١٣. (

ولا شك أنّ معجزات النبي(صلى الله عليه وآله) فاقت معجزات سائر النبيين كمْاً وكيفاً ونعتاً ووصفاً (١٤)، واعتنى الأعلام بجمعها، فعقد لها البخاري باباً كبيراً في صحيحه بعنوان دلائل النبوة، وذكر النووي في مقدمة شرح مسلم أنّ معجزات النبي تزيد على ألف ومائتين، وألّف

البيهقي وأبو نعيم كتابيهما باسم (دلائل النبوة) والحاكم في الإكليل، والقاضي عياض في الشفا وغيرهم خصّوها بالتأليف.

وقال الزمخشري في الكشاف: إنّ النبي(صلى الله عليه وآله) أعطاه الله آيات كثيرة وصلت إلى ألف آية أو أكثر ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء، لأنّه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات (١٥).

وقال الحافظ ابن حجر: وأما ما عدا القرآن من نبع الماء بين أصابعه، وتكثير الطعام، وانشقاق القمر، ونُطق الجماد، فمنه ما وقع التحدّي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحدٍ، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنّه ظهر على يده(صلى الله عليه وآله)من خوارق العادات شيء كثير (١٦).

الثالثة ـ المعجزة الخالدة هي الحجة الشاهدة:

لا شك عند جميع المسلمين أنّ القرآن المجيد هو المعجزة الخالدة، ولـمّا كانت سورة القمر فيه هي إحدى كرائم سوره ـ وكلها كرائم ـ وقد ذكرنا افتتاح الباب ببعض آياتها من أولها، وتلكم الآيات الكريمة ـ كسائر آيات القرآن الكريم ـ أنزلت بلسان عربي مبين، فلابدّ لنا من التدبّر في قوله تعالى في أول السورة) :اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . (

قال الشيخ الطوسي في التبيان: هذا إخبارٌ من الله تعالى بدّنو الساعة وقرب أوانها، فقوله: (اقْتَرَبَتْ) أي دنت وقربت، وفي (اقْتَرَبَتْ) مبالغة، كما أنّ في(اقتدر) مبالغة على القدرة، لأنّ أصل (افتعل) طلب إعداد المعنى بالمبالغة نحو (اشتوى) إذا اتخذ شوى في المبالغة في اتخاذه، وكذلك (اتخذ) من (أخذ) والساعة القيامة .

وقال الطبري: تقديره اقتربت الساعة التي تكون فيها القيامة، وجعل الله تعالى من علامات دنوّها انشقاق القمر المذكور معها، وفي الآية تقديم وتأخير، وتقديره انشقّ القمر واقتربت الساعة، ومن أنكر انشقاق القمر وأنّه كان، وحمل الآية على كونه فيما بعد ـ كالحسن البصري وغيره

واختاره البلخي ـ فقد ترك ظاهر القرآن، لأنّ قوله: (انْشَقَّ) يفيد الماضي، وحمله على الاستقبال مجاز .

وقد روى انشقاق القمر عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وابن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وجبير بن مطعم، ومجاهد، وإبراهيم، وقد أجمع المسلمون عليه، ولا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لشذوذه، لأنّ القول به أشهر بين الصحابة فلم ينكره أحد، فدلّ على صحّته، وأنّهم أجمعوا عليه، فخلاف من خالف فيما بعدُ لا يلتفت إليه، ومن طعن في انشقاق القمر بأنّه لو كان لم يخف على أهل الأقطار فقد أبعد .

لأنّه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، ولأنّه كان ليلاً فيجوز أن يكون الناس كانوا نياماً فلم يعلموا به، لأنّه لم يستمر لزمان طويل، بل رجع فالتأم في الحال، فالمعجزة تمّت بذلك(١٧ .(

فالإنذار بقرب الساعة أولاً: لا يستلزم انشقاق القمر بعدها أو عند قيامها، ثانياً: بزعم أن العطف بالواو، يقتضي الترتيب أو التشريك بمعنى إذا جاءت الساعة سينشق القمر ـ كما هو المنقول عن الحسن البصري وعطاء والبلخي ـ وهذا من سخف الرأي، ومرذول القول . لأنّ الفعل الماضي دالّ على وقوع في زمان مضى وانقضى، وحمله على الإستقبال مجاز، يفتقر إلى قرينة تنقله عن حقيقته، ودليل يسنده، وليس ذلك موجوداً في (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. (

والعطف على (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ) لا يقتضي الترتيب ولا التشريك زماناً أو مكاناً، وكم من آية في القرآن الكريم معطوفة بالواو من غير ترتيب الثاني على الأول، بل على العكس.

وأوضح مثال وأقرب منال لدى كل مسلم هو ما يتلوه في كل يوم عشر مرات في فرائض صلاته على أقلّ تقدير، وهو قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) في سورة الفاتحة، ومن الواضح أنّ طلب الاستعانة على العبادة يكون قبلها، وكم من نظير، وخذ إليك أظهر الشواهد، ويعرفه كل راكع وساجد، وذلك قوله تعالى: (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) (١٨) ومن نافلة القول بيان أنّ الركوع قبل السجود، مع أنّ الآية الكريمة ورد فيها خلاف ذلك .

وأيضاً في ذلك قوله تعالى لعيسى بن مريم: (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) (١٩) والرفع قبل التوفّي، ورحم الله ابن عباس حبر الأمة قيل له: تزعم أنّ العمرة قبل الحج، وقد قال الله (عز

وجل):(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) (٢٠) قال ابن عباس: فكيف تقرأ: (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ)(٢١) أفبالدَين تبدأ ؟ أم بالوصية وقد بدأ بالوصية (٢٢. (

ومالنا نذهب بعيداً عن نفس السورة التي افتتحنا بها الباب ـ وهي سورة القمر ـ فقد وردت فيها ست آيات مختومة بقوله تعالى: (عَذَابِي وَنُذُرِ (أربع منها على نسق واحد، وذلك قوله تعالى: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (23) (واثنتان منها بلفظ واحد، وهو قوله تعالى: (فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ)(٢٤.(

ومن المعلوم أنّ النذُرُ إنّما هم قبل العذاب، لأنّه تعالى قال في محكم كتابه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (٢٥) وقال) :رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (٢٦. (

فتبيّن أنّ العطف بالواو لا يقتضي الترتيب أبداً ولا التشريك، نعم ربمّا قيل لتقديم المقدّم حظاً وفضلاً على المؤخّر، كما نقل عن ابن جنّي متسائلاً بقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ) (٢٧) فقدّم المؤخّر في موضع تعداد النعم فكان أولى (٢٨ . (

فلنا أن نقول أيضاً: ما دام تقديم المؤخّر في موضع تعداد النعم كان أولى، فكذلك في موضع التخويف بالنقم أيضاً فهو أولى، فإنّ التهديد باقتراب الساعة التي كان المشركون يكذّبون بها كما قال تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (29) (وكانوا يسألون النبي(صلى الله عليه وآله) عنها مستهزئين، فقال تعالى) :يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا) (٣٠) وقال تعالى) :يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا) (٣١. (

فقد خوفهم تعالى بقوله: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وهددّهم لما طلبوا من النبي (صلى الله عليه وآله) متحدّين له ومعاجزين أن يشق لهم القمر، فدعا ربّه وانشق القمر حتى رأوه فلقتين والنبي (صلى الله عليه وآله) يقول إشهدوا إشهدوا، كما سيأتي بيان ذلك موثقاً، فازدادوا عتوّاً كما حكى الله تعالى حالهم: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) (٣٢) فزاد تعالى في تخويفهم بقوله في أواخر السورة: (بَلْ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) (٣٣ . (

فمعجزة شق القمر قد دلّ عليها القرآن المجيد، ومن أظهر دلائل حدوثها قوله تعالى حكاية عن مشركي قريش الذين هم طلبوا أن يريهم النبي (صلى الله عليه وآله) تلك المعجزة الظاهرة والآية

الباهرة، فلما أراهم ذلك وقال إشهدوا إشهدوا أعرضوا وقالوا: سَحَركم محمد، فقال تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.(

ولو تخلّينا عن عقولنا وقلنا بما قاله الحسن وعطاء والبلخي، وأنّ انشقاق القمر سيحدث عند قيام الساعة، فكيف لنا بالجواب عن معنى قوله تعالى) :وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)؟ وهل بعد قيام الساعة من تكليف ودعوة إلى الإيمان والإتيان بآية حتى يؤمنوا فلم يؤمنوا (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) ؟ والله سبحانه وتعالى قال في كتابه: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ) (٣٤.(

)وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ *وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)(٣٥ . (

الرابعة ـ وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا:

فـإنّ فضل رسول الله ليس له حَدٌّ فيعربُ عنه ناطقٌ بفم

لو ناسبت قدرَه آياتهِ عِظماً أحيى اسمه حين يُدعى دارس الرمم

لم يمتحنا بما تعيى العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أعيى الورى فهمُ معناه فليس يُرى للقَرب والبُعد منه غيرُ منقحم

كالشمس تظهرُ للعينين من بُعُدٍ صغيرةً وتكلّ الطرفَ من أمَم

وكيف يُدرِك في الدنيا حقيقته قوم نيامٌ تسلوا عنه بالحُلم

رحم الله البوصيري حين أشار إلى القوم الذين لم يدركوا الحقيقة المحمدية بأبعادها وأمجادها، فشبّههم بقوم نيام تسلّوا عنه بأضغاث الأحلام .

إنّ مسألة انشقاق القمر وردّ الشمس كسائر المسائل التي يجب أن تُبحث بعناية تامة، تعتمد حجج الإثبات عن طريق الكتاب والسنة، وإذا ما وجدنا في وسائل العلم الحديث ما يزيدنا إيضاحاً

نستطيع آنئذٍ أن نقنع المنكرين أو المشككين بالطريقة العلمية، وعندها نصل بطبيعة الحال إلى نتيجة مقنعة يقرها العقل وتفرضها الحجة.

فمثلاً إذا أمعنّا النظر في علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الإنسان، لوجدنا الثاني أقرب إلينا معرفة لأنّا نعيشه إحساساً، بخلاف الأول إذ نعتمد فيه على الحدس غالباً، ومهما تقدّم العلم عبر وسائله المتطوّرة فإنّما يتجلّى لنا انّا لم نبلغ من العلم إلّا قليلاً.

فدقائق الوجود وعجائب الكون وأسرار الخليقة، ما زالت طلاسم فوق طاقة العقل في إدراكه، وكم مرة مررنا بالآية الكريمة (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (٣٦.(

فمثلاً أسرار الكهرباء، وتحطيم الذرة، وما نشأ عنهما من المخترعات قرّبت إلى العقل فهم إمكان تحوّل المادة إلى طاقة وقوّة، ثم تحوّل القوّة والطاقة إلى مادة، وما زلنا بعد في بدايات الطريق، فأنّى لنا بلوغ ذروة العلم ومنتهاه لنعرف الحقيقة وكنهها، وكل ما أدركته العقول هو الآثار لتلك الحقيقة المجهولة سراً، المعلومة قدراً .

وقس على ذلك علم استحضار الأرواح مثلاً الذي شاع وذاع، فقد فسّر للناس كثيراً ممّا كانوا يجهلونه، وشيئاً كثيراً مما كانوا يختلفون فيه، وأعان على فهم تجرّد الروح، وإمكان انفصالها، وفهم ما تستطيعه من السرعة في طيّ الأبعاد، وهذا ممّا أعان على تقريب معجزة الإسراء والمعراج وكرامة طيّ الأرض، ونحوها ممّا صدر لنبيّنا (صلى الله عليه وآله . (

ولو أنّا تجرّدنا عن رواسب موروثة، وخداع دعايات مسمومة مبثوثة، لعرفنا أنّا نملك أمثل الوسائل لتمحيص السيرة ممّا علق بها من روايات مكذوبة، من أُناس دخيلين على الإسلام، أمثال كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وأبي الجلد وأضرابهم، ممّن دسّوا أنفسهم بين المسلمين، وبثّوا سمومهم في أخبار إسرائيلية طفحت بها كتب السيرة والتاريخ والتفسير.

وزاد المستشرقون المبشّرون في الطين بلّة، وفي النفس الضعيفة علّة، فكثر الدسّ وكثر الشك واستجاب أصحاب الإيمان المستودع لدعاة التشكيك وزادوا بالإنكار، ولو أنّهم كانوا ممّن محّص الله قلوبهم بالإيمان تمحيصاً يؤمنون معه بجلال عظمة الخالق، لآمنوا بما أفاضه تعالى على نبيّه

المصطفى (صلى الله عليه وآله (من رفيع المقام، منذ أن اختاره وانتخبه فابتعثه، هادياً ووليّاً ومرشداً، وداعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة .

وتوالى بعدهم ذكر أنماط في الأسقاط، فمنهم من صدّق بانشقاق القمر، لكنه أنكر معجزة ردّ الشمس، كابن تيمية وله أشباه وأشياع، ومنهم من أنكرهما معاً إذ لم يستمرؤا طعم الإيمان على حقيقته، فضاقت نفوسهم أن يؤمنوا بما لم يروا، وحملهم التعصّب والعناد حتى على إنكار ما رووا، وزادهم النصب تعقيداً، وهم يتلون الكتاب) أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)(٣٧ . (

الخامسة ـ العلم يدعو إلى الإيمان:

هذا العنوان اسم كتاب صدر في مصر أيام الغزو الإلحادي الذي هبّت رياحه على المسلمين، فتهاوى الهشيم ممّن على أرض الإسلام مقيم، وليس عليَّ من مؤاخذة لو أخذته من ذلك الكتاب وأنا أعترف له بالسبق .

إنّ التقدم العلمي في وسائل الاكتشافات الحديثة، يساعد كثيراً على فهم أسرار في الإعجاز القرآني العلمي، وقد أشار إلى جملة منها الكاتب الإسلامي عبد الرزاق نوفل في كتابه (القرآن والعلم الحديث) وقد صدر في الطبعة الأُولى سنة ١٣٧٨ هجـ ـ ١٩٥٩م فقد جاء فيه b ومن يعارض في أنّ القرآن كتاب علم فليتدبر آياته ليرى أنّ ألفاظ العلم قد تكرّرت في القرآن أكثر من ١٦٠ مرة، وأنّه قد حوى ٦٢٣٦ آية منها حوالي ٧٥٠ آية كونيّة وعلميّة، والباقي آيات للتشريع والمعاملة والعبادات والعقائد والتكاليف والتوحيد والتأمل وقصص الأنبياء السابقين. ...

ومن يقول إنّ الآية الشريفة: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ) (٣٨) آية معاملة أو تشريع أو تأمل أو توحيد ؟ ... أو ليست هذه الآية قد ضمّت أُصول علم الأجنة الذي يقرّر أنّ الجنين بعد نموّه يكون محاطاً بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة تعرف باسم المنبارية، والأمبونية، والخربونية ... أولا يسمّى مثل هذا الغشاء الأصم في اللغة العربية ظلمة ؟

ومن يقول أنّ الآية الشريفة: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) (٣٩) ليست آية علميّة، قد قرّرت حقيقة لم تعرف إلّا في السنين الأخيرة، وعندما اكتشفت نظرية

)لابلاس) في خلق السماوات والأرض اعتبر ذلك نصراً للعلم، في حين أنّ القرآن يقرّرها من عشرات المئات من السنين ...

والآيات المشابهة مئات، حيث علوم الطبيعة والفلك والجيولوجيا والنبات والحيوان والزراعة والوراثة وعلم النفس والطب الاجتماعي والصحة والتاريخ والجغرافيا والميتافيزيقا وما لا سبيل إلى حصره .

وإذا أوضحنا للعالم غير العربي أنّ القرآن معجزة علميّة قد حوى أُصول العلم الحديث، وسبق إلى كل مستحدث من العلوم، ألا يكون هذا الوجه من إعجاز القرآن كافياً لإقناع رجال الـغرب بمعـجـزة الـقرآن .. لاسيما أنّ حـديث العلم هو القول الفصل الذي لا يستطيع أي مكابر أن يجادل معه أو يشك فيه.

أولا يكون إعجاز القرآن العلمي بذلك .. هو السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير العرب ؟

إنّ اليوم الذي ننشر على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن إلى القول به، وأثبته التقدّم العلمي في مختلف العلوم، لهو اليوم الذي يكون فيه قد أدّينا الرسالة، وأبلغنا الدعوة... وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب)(٤٠.(

وقد ذكر في كتاب نوفل شواهد في جملة من فروع العلم ورد في القرآن الكريم سبقه إليها قبل اكتشاف العلم الحديث لها . إلى أن قال في ص٩٧ من علم الديناميكا: (لم يعرف العلم شيئاً عن علم الديناميكا، أو ما يسمى بعلم الحركة إلّا بعد عام ١٦٦٤ حينما لاحظ العالم نيوتن سقوط تفاحة بجواره على الأرض ولم يدهشه أنّها تسقط وإنّما فكّر في السبب الذي يجعل التفاحة تسقط من أعلى الشجرة ومن فوق رأس برج أو من على قمة جبل شاهق .

وتساءل إلى أيّ مدى يمتد جذب الأرض للجسم ... وهل تجذب الأرض القمر كذلك .. وهل لذلك كله حساب دقيق، وعكف على هذه الدراسات إلى أن وصل إلى قوانين أساسية في علم الحركة خاصّة بحركة كل الأجسام والثقل ورد الفعل .

وفي أوائل القرن الحالي ـ القرن العشرين ـ ظهر العالم أينشتين الذي أدخل بعض التعديلات على نظريات نيوتن، وخلص منها بنظريته النسبية التي يقول عنها العلماء أنّها تعتبر بحق فاتحة عصر جديد في تطور العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، بل في تطور التفكير الفلسفي نفسه .

وهذه النظريّة معقّدة إلى درجة كبيرة تحوي نظريات ومعادلات رياضيّة لإثباتها، ومن نتائج هذه النظريّة أنّ الحوادث التي تحدث في مكان واحد يسهل على من يقيم في هذا المكان أن يرتبها ترتيباً زمنياً من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، ولكن إذا كانت الحوادث واقعة في أماكن متباعدة فكيف نحكم على تعاقبها الزمني ؟

إذا شاهد العالم خسوف القمر في الساعة الحادية عشرة، فمعنى هذا أنّ القمر لم يخسف في هذه الساعة، وإنّما خسف قبل المدّة التي قضاها الضوء في الوصول من القمر إلى الأرض ... ولو حدث أن كان عالم يرصد الخسوف من كوكب آخر، فإنّه يراه في لحظة تختلف عن اللحظات التي يشاهدها الباحث الأرضي بقدر اختلاف البُعد بين الكوكب الآخر والقمر وبُعد الأرض عن القمر، إذاً فلا يوجد زمان مطلق، وكذلك البُعد بين نقطتين على سطح الأرض، قد يكون حقيقة مطلقة يسهل على أهل الأرض الإتفاق عليها .

ولكن ما معنى البُعد بين نجمين يبعد كل منهما عنّا ملايين الملايين من الأميال .. هل نفترض أن سكان الأرض وسكان كوكب آخر سيتفقان على مقدار البُعد ؟

إذاً فالزمن والكُتلة والمسافة كلها أشياء نسبية ـ وأقرب توضيح لذلك قول القائل إنّه مسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بالقطار السريع، فيصل إليها في ساعتين ـ فقد يندهش شخص تعوّد السفر بالدابة، إذ يقطع هذه المسافة في أيام وليال ويقول: ما أسرع هذا القطار! وقد يندهش آخر تعوّد السفر بالطائرة، فهو يقطع المسافة في دقائق ويقول: ما أبطأ القطار... فالذي يعتبره الإنسان سريعاً قد يراه غيره بطيئاً، وما ذلك إلّا لأنّ كلاً منهما قد نسبه إلى سرعة معيّنة اعتادها، بل نحن في أغلب الأحيان نحسّ بثقل الوقت وبطء مروره، وفي أحيان أخرى نحسّ بسرعته وخفّة جريانه، وما ذلك إلّا تبعاً لحالة معيّنة نعانيها .

والقرآن الكريم قطعاً أول كتاب علمي أو ديني قد جاء بأساس النسبية، فقرر أنّ هناك يوماً طويلاً يبلغ ألف سنة مما نعدّ .. وهناك يوم يبلغ خمسين ألف سنة، وذلك في الآية الخامسة من سورة

السجدة التي نصّها: (يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.(

والرابعة من سورة المعارج التي نصّها: (تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. (

أما طول اليوم الذي تقول عنه الآية ١٧من سورة المزمّل (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) فقد ذكرته الآية ٤٧ من سورة الحج (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (٤١ .)

السادسة ـ خظرفة القمر من دون اختلال في الفلك:

قبل الشروع في بيان ذلك علينا أن نبصّر القارئ بمعنى (الخظرفة (فنقول: قال الجوهري في الصحاح: خظرف البعير في سيره، لغة في خَذَرَفَ إذا أسرع ووسّع الخطو، بالظاء المعجمة(٤٢ (.

أقول: لكن ورد في بقية المعاجم بالطاء المهملة ، قال صاحب القاموس :خطرف أسرع في مشيته أو جعل خطوتين خطوة في وساعته... والخطريف كقنديل السريع، وكعصفور السريع العَنَقَ..، وفي نهاية ابن الأثير: خطرف في حديث موسى والخضر(عليهما السلام .(

وإنّ الاندلاث والتخطرف من الانقحام والتكلّف، تخطرف الشيء إذا جاوزه وتعداه .

وفي لسان العرب نحو ما تقدّم، وحكى عن ابن بري يقال: خظرف في مشيته بالظاء والطاء أيضاً .

وفي تاج العروس: خطرف هكذا هو في سائر النُسخ بالسواد، وليس هو في الصحاح، وكذا قال الصاغاني في التكملة، أهمله الجوهري، والموجود في نُسخ الصحاح هو خظرف بالظاء المعجمة، وقد اشتبه على المصنف ذلك أو هو من النسّاخ، ورأيت شيخنا)رحمه الله) قد نبّه على ذلك وعلّله بقوله: لأنّه لو كان بالمعجمة لأخره عن خطف .

قال ابن دريد : خطرف الرجل أسرع في مشيته وخطر ، أو خطرف البعير جعل خطوتين خطوة في وساعته كتخطرف فيها أي في الإسراع وجعل الخطوتين خطوة.

والآن إلى خظرفة القمر وخطرفته، فقد ذكر ابن الأجدابي المتوفى حوالي سنة٦٥٠ هجـ في كتابه الأزمنة والأنواء (٤٣) قال :

وربما خطرف القمر فنزل بالتي تليها، وربما قصّر عنها فنزل دونها، وربما عدل عن المنزلة فنزل بغيرها ممّا يتصل بها، فمن ذلك الهنعة، ربما عدل عنها فنزل بالتحايي (٤٤)، ومن الناس من يعد التحايي من الهنعة، وربما عدل عن الذراع فنزل بالذراع الأُخرى (٤٥)، وربما عدل عن السماك فنزل بعرش السماك، ورّبما قصّر عن الشولة فنزل بالفقار(٤٦) فيما بين القلب والشولة، وربما عدل عن البلدة فنزل بالقلادة(٤٧)، وربمّا قصّر عن الفَرغ(٤٨) الثاني فنزل بالكَرَبَ(٤٩)،وهو وسط الفرَغيَن (٥٠)، وربما نزل ببلدة الثعلب بين (٥١) الدلو والسمكة .

أقول: بعد هذا العرض اللغوي لمعنى كلمة (خطرف) والعرض الفلكي لمعنى خطرفة القمر، تبيّن لنا أنّ للقمر في سيره حالات مختلفة، فقد يسرع فيطوي ما بين المنزلتين بسير منزلة، وهذا ما فصّلّه ابن الأجدابي بقوله ربّما ربّما، ولم يذكر أنّ الفلك اختلّ في سيره مرة، بل ولا كان ذلك محسوساً لجميع الناس، بل لم يعرفه إلّا ذوو الإختصاص من الفلكيين، وربما باستعانة المراصد.

فإذن مسألة انشقاق القمر لا يلزم التصديق بها إلى معرفة جميع الناس، بل يكفي معرفة أُولئك الذين طلبوا الآية من النبي(صلى الله عليه وآله)، وأُولئك السُفار الذين أحسّوا به للتوسع في ذلك .

فنقول: لقد رآه من كان بالهند كما في حديث رتن الهندي، وهو المعمّر المترجم في الإصابة ومعدود في الصحابة، ولا عبرة بتشكيك الذهبي بوجوده مع النقض عليه والإبرام، وحسبنا في المقام نقل ما عند ابن حجر من كلام.

قال الشيخ البهائي العاملي (رحمه الله :(

تذنيب: القمر إذا أسرع في سيره فقد يتخطّى منزلاً في الوسط، وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين في منزل، أول الليلتين في أوله، وآخرهما في آخره، وقد يُرى في بعض الليالي بين منزلين (٥٢ .(

فما وقع في الكشاف وتفسير القاضي عند قوله تعالى: (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) (٥٣) من أنّه ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطّاه، ولا يتقاصر عنه (٥٤) ليس كذلك فاعرفه .

السابعة ـ رؤية رتن لانشقاق القمر في الهند:

قال في الإصابة (٥٥): رتن بن عبد الله الهندي... شيخ خفي خبره بزعمه دهراً طويلاً إلى أن ظهر على رأس القرن السادس، فادّعى الصحبة فروى عنه ولداه محمود وعبد الله وموسى بن مجلي... ثم عدّ أسماء تسعة غيرهم ممّن روى عنه الحديث، ثم ذكر كلام الذهبي في تجريده وميزانه في تكذيبه، وإنّه ألّف في أمره جزءاً، وقد ظفر به ابن حجر ونقل عنه، فكان بعض ما فيه جملة أحاديث، منها:

قال (صلى الله عليه وآله): من مات على بغض آل محمد مات كافراً . ...

وقال: ما من عبد يبكي يوم أصيب ولدي الحسين إلا كان يوم القيامة مع أولي العزم .

واستمر ابن حجر يستعرض بقية ما في النسخة، ثم ذكر ما عند الذهبي من كلام في شأن تلك المرويات، والتشكيك بوجود رتن، وذكر غلاة الصوفية، واستبعاده وجود رتن، واستمر ابن حجر يحكي أقوال الذهبي إلى قوله :

ولعمري ما يصدّق بصحبة رتن إلّا من يؤمن بوجود محمد بن الحسن في السرداب، ثم بخروجه إلى الدنيا فيملأ الأرض عَدلاً، أو يؤمن برجعة علي، وهؤلاء لا يؤثر فيهم علاج.

وختم بقوله: انتهى ما ذكره الذهبي في خبر كسروثن رتن ملخصاً .

ثم قال: وقد وقفت على الجزء الذي أشار إليه، وفيه أكثر من ثلثمائة حديث كما قال، ثم وقفت على طريق أخرى إليه فأنبأنا غير واحد عن المحدث المكثر الرحال جمال الدين الاقشهري نزيل المدينة المنوّرة، عن علي بن عمران الصنعاني، عن رفيع الدين عمر بن محمد بن أبي بكر السمرقندي أنّه حدّثه من لفظه بالمسجد الجامع بصنعاء سنة أربع وثمانين، عن أبي الفتح موسى بن مجلّي، فذكر النسخة بطولها .

وفي نسخة الإربلي المذكور قال رتن: كنت في زفاف فاطمة أنا وأكثر الصحابة ... إلى أن قال في ص٥٣٠: وقرأت بخط المؤرخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري في تاريخه قال: سمعت النجيب عبد الوهاب بن إسماعيل الفارسي الصوفي بمصر سنة اثني عشرة وسبعمائة يقول: قدم

علينا بشيراز سنة خمس وسبعين وستمائة الشيخ المعمر محمود ولد بابا رتن فأخبرنا أن أباه أدرك ليلة شق القمر وكان ذلك سبب هجرته . ...

ثم قال ابن حجر : وقرأت قصّته من وجه آخر مطوّلة بخط الأديب الفاضل صلاح الدين الصفدي في تذكرته، وأنبأني عنه غير واحد شفاهاً إنّه قرأ في تذكرة الأديب الفاضل علاء الدين الوداعي، ثم ساق ما أنبأه به علي بن محمد بن أبي المجد شفاهاً عن الوداعي، فذكر الحديث بطوله فجاء فيه من قول رتن:

فلمّا تطاولت المدّة على ذلك كنّا جلوساً في فناء ضيعتنا هذه في ليلة مقمرة ليلة البدر، والبدر في كبد السماء إذ نظرنا إليه وقد انشق نصفين، فغرب نصف في المشرق، ونصف في المغرب ساعة زمانية، وأظلم الليل، ثم طلع النصف الأول من المشرق والنصف الثاني من المغرب إلى أن التقيا في وسط السماء كأن أول مرة، فتعجبنا من ذلك غاية العجب، ولم نعرف لذلك سبباً.

فسألنا الركبان عن خبر ذلك وسببه، فأخبرونا أنّ رجلاً هاشمياً ظهر بمكة، وادعى انّه رسول الله إلى كافة العالم، وأنّ أهل مكة سألوه معجزة كمعجزات سائر الأنبياء، وأنهم اقترحوا عليه أن يأمر القمر أن ينشق في السماء ويغرب نصفه في المشرق ونصفه في المغرب، ثم يعود إلى ما كان عليه، ففعل لهم ذلك بقدرة الله تعالى .

فلمّا سمعت ذلك من السُفار اشتقت إلى أن أرى المذكور، فتجهّزت في تجارة وسافرت إلى أن دخلت مكة، فسألت عن الرجل الموصوف فدلّوني على موضعه، فأتيت إلى منزله، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه فوجدته جالساً في وسط المنزل والأنوار تتلألأ في وجهه، وقد استنارت محاسنه، وتغيّرت صفاته التي كنت أعهدها في السفرة الأُولى فلم أعرفه.

فلمّا سلّمت عليه نظر إليَّ وتبسّم وعرفني وقال: وعليك السلام، أدن منّي،وكان بين يديه طبق فيه رطب، وحوله جماعة من أصحابه يعظّمونه ويبجّلونه، فتوقّفت لهيبته، فقال: يا أبانا أدن منّي وكل، الموافقة من المروءة، والمنافقة من الزندقة.

فتقدّمت وجلست وأكلت معهم من الرطب، وصار يناولني الرطب بيده المباركة إلى أن ناولني ستّ رطبات سوى ما أكلت بيدي، ثم نظر إليَّ وتبسم، وقال: ألم تعرفني ؟ قلت: كأني غير أني ما أتحقق . فقال: ألم تحملني في عام كذا، وجاوزت بي السيل حين حال السيل بيني وبين ابلي،

فعرفته بالعلامة، وقلت له: بلى، يا صبيح الوجه، فقال لي: أمدد يدك، فمددت يدي اليمنى إليه فصافحني بيده اليمنى وقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمداً رسول الله، فقلت ذلك كما عَلّمني، فسُرّ بذلك، وقال لي عند خروجي من عنده: بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك.

فودّعته وأنا مستبشر بلقائه وبالإسلام، فاستجاب الله دعاء نبيّه، وبارك في عمري بكل دعوة مائة سنة وها عمري اليوم ستمائة سنة، وزيادة وجميع مَن في هذه الضيعة العظيمة أولادي وأولاد أولادي، فتح الله عليَّ وعليهم بكل خير وبكل نعمة ببركة رسول الله (صلى الله عليه وآله . (

ثم قال ابن حجر: وقد وقعت لي روايات أخرى غير ما ذكره الذهبي إلى رتن، منها ما قرأت في كتاب الوحيد في سلوك أهل طريق التوحيد للشيخ عبد الغفار بن نوح الفوصي، وقد لقيت حفيده الشيخ عبد الغفار بن أحمد بن عبد الغفار ... وساق الحديث عنه ثم عن البهاء الجَنَدي في تاريخ اليمن وعن غيره ممّا يؤكد وجود رتن والحديث عنه، وقد أطال في ذلك إلى أن قال :

وقد تكلّم الصلاح الصفدي في تذكرته في تقوية وجود رتن، وأنكر على مَن ينكر وجوده، وعوّل في ذلك على مجرّد التجويز العقلي .. وليس النزاع فيه، إنّما النزاع في تجويز ذلك من قبل الشرع بعد ثبوت حديث المائة في الصحيحين، والاستبعاد الذي عوّل عليه الذهبي . ...

ثم قال ابن حجر: ولما اجتمعت بشيخنا مجد الدين الشيرازي شيخ اللغة بزَبَيد من اليمن ـ وهو إذ ذاك قاضي القضاة ببلاد اليمن ـ رأيته ينكر على الذهبي إنكار وجود رتن، وذكر لي انّه دخل ضيعته لما دخل بلاد الهند، ووجد فيها من لا يحصى كثرة ينقلون عن آبائهم وأسلافهم عن قصة رتن، ويثبتون وجوده، فقلت: هو لم يجزم بعدم وجوده، بل تردّد، وهو معذور إلى آخر ما في جعبة ابن حجر من حجر .

وأنا لا أروم إثبات أو نفي وجود رتن الهندي، فمهما يكن من أمره، ولكنّي أقول لا يوجد دخان من دون نار، ولا دار من دون ديّار، فإذا كان الرجل كاذباً فلماذا ترجمه ابن حجر في الإصابة؟ فذلك هتك للصحابة، كضم الحجر إلى الجوهر، والعبد إلى القمر الأزهر، إذاً ليس هو خرافة بعد كل ما رواه عنه الذهبي وغيره من أحاديث ليس فيها من نكارة، سوى استبعاد صحبته وروايته عن النبي(صلى الله عليه وآله)، فليكن من قبيل أهل البدع، لنا روايته وعليه بدعته، خصوصاً بعد أن

لم نجد بعض مرويّاته فيها ما يناقض الدين، بل ولا مثل ما عند الآخرين من مرويات الكذابين، وأخشى أن تكون دوافع بعض ما تقدّم من حديثه في ذكر أهل البيت الطاهرين(عليهم السلام) هو سبب الطامة التي لحقته حتى عدّ في الكذابين .

شاهد تصديق لما رواه رتن:

وفي إحدى المخطوطات الهندية القديمة، والمحفوظة في مكتبة المركز الهندي بمدينة لندن تحت رقم٢٨٠٧ / ١٥٢ ــ ١٧٣، ذكر المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور محمد حميد الله في كتابه المعنون محمد رسول الله أنّ أحد ملوك ماليبار - وهي إحدى مقاطعات جنوب غربي الهند - وكان اسمه شاكرواتي فارماس) (Chakarawati Farmas شاهد انشقاق القمر على عهد رسول الله)صلّى الله عليه وسلم) وأخذ يحدّث الناس بذلك .

وحدث أن مرّ عدد من التجار المسلمين بولاية ماليبار، وهم في طريقهم إلى الصين، وسمعوا حديث الملك شاكرواتي فارماس عن انشقاق القمر، فأخبروه أنّهم أيضاً قد رأوا ذلك، وأفهموه أنّ انشقاق القمر معجزة أجراها ربّنا (تبارك وتعالى (تأييداً لخاتم أنبيائه ورسله (صلّى الله عليه وسلم) في مواجهة تكذيب مشركي قريش لنبوته ولرسالته .

فأمر الملك بتنصيب ابنه وولي عهده قائماً بأعمال مملكة ماليبار، وتوجّه إلى الجزيرة العربية لمقابلة المصطفى (صلّى الله عليه وسلم . (

وبالفعل وصل الملك الماليباري إلى مكة المكرمة وأعلن إسلامه أمام رسول الله (صلّى الله عليه وسلم)، وتعلّم ركائز الدين الأساسية، وأفل راجعاً، ولكن إرادة الله (تعالى) أن ينتهي أجله قبل مغادرته أرض الجزيرة العربية، فمات ودفن في أرض ظفار، وحين وصل الخبر إلى ماليبار كان ذلك حافزاً لدخول أهلها الإسلام زرافات ووحداناً (٥٦.(

والآن وبعد هذه البدايات التمهيدية، فلنقرأ بإمعان لنتابع ماذا عن انشقاق القمر في التراث الإسلامي، وذلك من خلال مبحثين: الأول فيمن أنكر حدوث معجزة شق القمر وما هي حجته؟ والمبحث الثاني فيمن أثبت ذلك بوسائل الإثبات التي عنده.

الهوامش

- 1القمر: ١ – ٨.

- 2القمر: ١٧.

- 3الإسراء: ٨٥.

- 4يوسف: ٧٦.

- 5محمد الغزالي، نظرات في القرآن : ١٥٤ نقلاً عن إعجاز القرآن للسيد هبة الدين الشهرستاني (رحمه الله.)

- 6والنسبة المناسبة وهي الشق فيهما .

- 7الورد:الماء المورود، والشبم:البارد .

- 8المجموعة النبهانية ٤ : ٩ – ١٠.

- 9الإسراء : ٨٥.

- 10الشمس : ٧ – ٨.

- 11النحل: ٩٨.

- 12صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان .

- 13انظر مناقب الشافعي: ٣٨.

- 14النعت أخص من الوصف، فتقول: زيد عاقل وحليم، وعمرو جاهل وسفيه، فوصفت زيداً بالعقل والحلم، وليس كل عاقل بحليم ولا كل جاهل بسفيه.

- 15الكشاف في تفسير قوله تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) الآية في سورة البقرة: ٢٥٣.

- 16فتح الباري ٦ : ٤٥٢ ط البهية.

- 17التبيان ٩: ٤٤٢ – ٤٤٣ ط النعمان النجف الأشرف بتحقيق القصير.

- 18آل عمران : ٤٣.

- 19آل عمران : ٥٥ .

- 20البقرة : ١٩٦.

- 21النساء : ١١ .

- 22التمهيد لابن عبد البر ٧ : ٢١٥ ط دار الكتب العلمية بيروت.

- 23الآيات : ١٦ – ١٨ – ٢١ – ٣٠.

- 24الآيتان: ٣٧ – ٣٩.

- 25الإسراء : ١٥.

- 26النساء : ١٦٥.

- 27الفتح : ٢٤.

- 28معاني القرآن للزجاج ١ : ١٥٤ تحقيق إبراهيم الأبياري ط تراثنا بمصر سنة ١٩٦٣.

- 29الفرقان : ١١.

- 30النازعات : ٤٢.

- 31الأحزاب : ٦٣.

- 32القمر : ٢ .

- 33القمر : ٤٦.

- 34الروم: ١٢.

- 35الروم: ١٤ – ١٦.

- 36فصلت : ٥٣.

- 37محمد : ٢٤.

- 38الزمر: ٦.

- 39الأنبياء : ٣٠.

- 40القرآن والعلم الحديث: ٢٤ - ٢٥ ط دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٨ هجـ.

- 41القرآن والعلم الحديث: ٩٧ – ٩٩.

- 42الصحاح: ١٣٥٣ (خظرف.)

- 43الأزمنة والأنواء:٨٧-٨٨ تحقيق الدكتور عزة حسن ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق سنة١٩٦٤م منازل القمر.

- 44التحايي: ثلاثة كواكب حذاء الهنعة، واحدها تحياة، وهي بين المجرّة وبين توابع العيّوق. وكان أبو زياد الكلابي يقول: التحايي هي الهقعة، انظر الأنواء: ٤٢– ٨٦، والأزمنة ١: ١٨٩، والآثار الباقية:٣٤٢- ٣٥١ واللسان، (حيا.)

- 45القمر ينزل بالذراع المقبوضة، وإذا عدل عنها نزل بالذراع المبسوطة وهما ذراعا الأسد . انظر الأنواء: ٤٨– ٤٩، والمعجم الفلكي: ٣٨ كما في المصدر.

- 46الفقار: ستة كواكب، كل كوكب منها فقرة، وهي في ذنب العقرب . انظر الأنواء: ٨٦، والأزمنة١: ١٩١.

- 47القلادة: ستة كواكب مستديرة صغار خفيّة، تشبه بالقوس، ويسميها قوم القوس، وتسمى الأدحي . انظر الأنواء: ٧٥، والأزمنة ١ : ٩٤.

- 48في الأصل المخطوط: القرع، وهو تصحيف.

- 49انظرالأنواء: ٨٦، والأزمنة ١: ١٩٦، والكرب من الدلو: ما شد به الحبل من العراقي وهو وسطها.

- 50في الأصل المخطوط: القرعين، وهو تصحيف.

- 51في الأصل المخطوط: من، وهو تصحيف، والتصويب من الأنواء: ٧٦، والأزمنة ١ : ١٩٦

.

- 52الحديقة الهلالية : ٨٥ ط مؤسسة آل البيت(عليهم السلام .(

- 53يس : ٣٩ .

- 54الكشاف ٤: ١٦، وأنوار التنزيل ٤: ١٨٨.

- 55الإصابة ٢: ٥٢٣.

- 56مقتبس من مواقع الانترنيت.

المبحث الأول: ومن هم النفاة؟ وما الذي قالوه؟

لقد مرّ بنا في آخر الباب الأول ماذا قال العلم الحديث في المقام ؟ وذكرت ما يقّرب إلى ذهن القارئ الذي ينتظر كلمة العلم الحديث، إمكانية خرق القوانين الطبيعية في الآيات الكونية، من دون تعرّض الكون للفساد، والآن أود التنبيه على أنّ الذين قالوا بالاستحالة إنّما هم ممّن فاتهم الإذعان بقدرة الله تعالى أولاً، ولم يكن لديهم إثارة من علم الفلك ثانياً .

وإذا كان فيهم مَن لديه حرف منه فهو على هيئة بطليموس، ونظريته التي ثبت بطلانها بعد تقدّم العلم الحديث، وأصحاب تلك النظرية تصوّروا السماوات السبع والأرضين السبع مثل بصلة، تعلو قشورها بعضاً فوق بعض، ويحيطها جميعاً فلك الأفلاك، وهي عندهم سبعة أفلاك، يتصل بعضها بالآخر اتصالاً وثيقاً غير قابل للإنفكاك، مع وجود فواصل متفاوتة بين كواكبها، وكل منها مستقر في فلكه، غير أنّه مرتبط مع غيره، فإذا حدث في واحد ما يغيّره جرى ذلك إلى البقية، وسرى إليها الإختلال وتأثر الجميع بذلك الإنحلال، لأنّ العالم كله بأفلاكه وأملاكه محدود في فضاء متناه .

هكذا رأي الهيئة القديمة التي نسبت إلى بطليموس، وتابعه عليها من تابعه ممن قال باستحالة الآيات الكونية، ومنها انشقاق القمر وأعطف عليه ردّ الشمس، بناءً على هذه المقالة الفاسدة .

أما اليوم والعلم الحديث بلغ مبلغاً في الكشف العلمي بقوة غزا الكواكب بها حتى نفذ إلى أقطار السماوات بسلطانه، فأدرك بعض أسرار الإعجاز القرآني في آياته البيّنات نحو قوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ) (١.)

وأدركوا أنّ الفضاء لا نهاية له وهو في اتساع، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (٢.)

وقد توصّل العلماء إلى أنّ المجموعة الشمسيّة التي كوكب الأرض وكوكب القمر من توابعها ولها توابع نحوهما، إنّما هي إحدى مجموعات كثيرة وكبيرة من شموس أُخرى، وكوكب القمر في مجموعتنا الشمسية هو أقرب كواكبها الأخرى إلى الأرض، وتلك كواكب على غرار كوكبنا الأرضي في تابعيته للشمس، وإن اختلف شكلاً وحجماً وحركةً وقرباً وبعداً من الشمس.

كما توصّل العلماء عن طريق الأجهزة المتطوّرة أنّ بعض الكواكب سبق لها في الماضي السحيق أن حدث فيه انفجارات لا تزال أجزاء ما تناثر منه تسبح في الفضاء اللامتناهي نتيجة ذلك الإنشطار، وربما بعضها اتخذ مداراً حول شمسنا بفعل الجاذبية منها، وهذا كله لم يؤثّر على سير بقية أفلاك المجموعة الشمسية: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (٣ . (

فنقول للمنكرين الذين أعجزهم الجهل وعدم الإيمان بحدوث انشقاق القمر: ما بالكم تنكرون آية دلّ القرآن الكريم عليها، كما مرّ في المعجزة الخالدة هي الحجة الشاهدة، بحجة أنّ الإنشقاق فيه خرق وثم التنام، وهذا حدث عظيم ينبغي أن يراه العالم، وأن يكتبه المؤرّخون من سائر الأمم وأن .. وأن ...

نقول لهم: أيّها النفاة اتحدّوا وأعدّوا، وأنّى لكم وأنتم بين مشرّق ومغرّب، على اختلاف الزمان والمكان، وعلينا أن نجمع شتاتكم ونعرّف فئاتكم كما نعرض فُتاتكم .

من هم النفاة ؟

يمكننا أن نجعلهم فريقين يتجاذبان الإنكار، ولكن كل فريق يحطب بحبله، ويخطب بعقله .

فالفريق الأول: ويمثّله الحسن البصري، وعطاء المكي، ومقاتل بن سليمان البلخي، فهؤلاء أوائل الذين أساؤوا فهم لغة القرآن، ولم يستضيئوا بنور العلم من معدنه، فقالوا في تفسير الآية الكريمة: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) إنّ الإنشقاق سيحصل عند قيام الساعة، وهو من أشراطها، وأنّ الآية الكريمة وإن جاءت بلفظ الماضي، لكنها أرادت المستقبل.

ومعنى (انشقّ) سينشق، فالآية غير دالّة على تحقيق الوقوع، وهذا ما حكاه عنهم غير واحد من المفسّرين، وقد ردّوه عليهم ردّاً بليغاً، سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد وجدت لهم تبعاً في زلل هذا القول هو الحليمي، وقد حكاه عنه الرازي في كتابه (نهاية القولِ) وستأتي مقالته عند التعريف به.

والفريق الثاني: قد تجاوز الحدّ حتى في العدّ، فكان منه جماعة من شيوخ المعتزلة، كهشام بن عمرو الفوطي، والنظّام، والجاحظ، وأبو الحسين Kوكان منهم من الأشاعرة أبو إسحاق،

والحليمي الآنف الذكر أيضاً فهؤلاء أنكروا جملة من المعجزات، وكان انشقاق القمر واحداً منها، بحجة منع حدوث الخوارق سواء كانت معجزة أو كرامة .

وفي العصر الحاضر وجدنا من لا يؤمن بهذا الحديث ـ معجزة شق القمر ـ أسفا، وله فيما كتب من تفسير هَدَفا، وقد ضلّ وأضلّ به كثيراً ممّن اتخذه كهفاً وكنفاً، ربما أتينا على ذكره في آخر المبحث ولو بنحو الإشارة .

ونعود إلى النفاة فنعرّفهم للقرآء حسب ما يقتضي المقام .

فأوّلهم الحسن البصري (ت / ١١٠ هجـ) ذكره مترجموه في التابعين، ووصموه بالتدليس حتى قال عنه ابن العجمي في التبيين لأسماء المدلّسين: من المشهورين بالتدليس، وقد قال ابن سيرين: لا تأخذوا بمراسيل الحسن، فإنّه لا يبالي عمّن أخذ حديثه(٤ . (

وقد استقصى حافظ ثناء الله الزاهدي ـ في كتابه تحقيق الغاية بترتيب الرواة المترجم لهم في نصب الراية في ترجمة الحسن البصري ـ كلمات الأعلام في مرويات الحسن عن الصحابة وتفنيد سماعه منهم، وهو مفيد في إثبات تدليسه، فراجع(٥.(

ولـمّا كانت معجزة انشقاق القمر مذكورة في القرآن، وإنّما يصحّ لأمثاله الكلام فيها عن علم تعلّمه مما رواه غيره في تفسيره، ولما لم يذكر أحداً لنرى صحة روايته، فهو إذاً لم يكن ما قاله عن رواية، وإنّما كان ذلك رأياً منه، فحينئذٍ لا عبرة برأيه ما دام فسّر القرآن برأيه، وكيف نقبل قوله وقد ورد التغليظ في ذلك حتى ورد مرفوعاً b :من فسرَّ القرآن برأيه فأصاب تكتب ـ كتبت ـ عليه خطيئة vوفي لفظ b فليتبوأ مقعده من النار . (6) v

وثانيهم عطاء هو ابن رباح المكي (ت / ١٣٥ هجـ) وهذا كسابقه في عدم الأخذ بمرسلاته حتى قال أحمد بن حنبل: وليس في المرسلات أضعف من مرسلات الحسن وعطاء، فإنّهما كانا يأخذان عن كل أحد (٧)، وفوق هذا فقد ذكره أبو القاسم الكعبي أنّه كان من المرجئة (٨)، وذكر ابن حجر انّه قرأ بخط الذهبي قول ابن المديني: كان ابن جريج وقيس بن سعد تركا عطاء بآخره ...

فهو إذن في سماعه إشكال، وفي رأيه مثل ذلك خصوصاً في الإرجاء الدال على فساد معتقده .

وثالثهم مقاتل بن سليمان البلخي (ت / ١٥٠ هجـ) وقد مرّ بعض تعريفه، ويكفي في ذلك قول ابن أبي حاتم فيه صاحب التفسير والمناكير: فهو ساقط لمناكيره، فلا نطيل الوقوف عنده لالتماس معاذيره، أنّى ذلك وهو من المجسّمة كما جاء في (المواقف (حيث قال: والمجسّمة قالوا هو جسم حقيقة فقيل مركّب من لحم ودم كمقاتل بن سليمان (٩. (

وفي ميزان الإعتدال في ترجمته من التصريح بأضاليله حتى نقل عن أبي حنيفة قوله: أفرط جهم في نفي التشبيه، حتى قال أنّه تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل - يعني في الإثبات - حتى جعله مثل خلقه، وقال ابن حبّان: كان يأخذ عن اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يشبّه الربّ بالمخلوق، وكان يكذب في الحديث .

وفي تاريخ بغداد: قال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي: أخرجت خراسان ثلاثــة لم يكن لهم في الدنيـــا نظير ـ في البدعة والكذب ـ جهم بن صفوان، وعمر بن صبيح، ومقاتل بن سليمان، وروى أبو يوسف أنّه قال: بخراسان صنفان ما على الأرض أبغض إليَّ منهما: المقاتلية والجهمية (١٠ . (

ورابعهم: هو إبراهيم بن سيّار النظّام (ت / ٢٣١ هجـ) من شيوخ المعتزلة، وهو صاحب القول بالطفرة حتى أضحت مثلاً فيقال لمالا يعقل ويتم بدون مقدّمات كطفرة النظام، بمعنى بلوغ المرحلة الثالثة من دون المرور بالثانية، وله مقالات شاذة أُخرى، والذي يعنينا من إنكاره معجزة شق القمر، وقد حكى ذلك عنه القاضي عبد الجبار في كتابه (١١)، وردّ عليه وعلى غيره، وسنقرأ ذلك في: ماذا عند المتكلّمين .

وخامسهم عمرو بن بحر الجاحظ (ت / ٢٥٥ هجـ) من شيوخ المعتزلة البصريين، وهو في شهرته من خلال كتبه غني عن التعريف، ففي مقدّمات المطبوع منها كالبيان والتبيين، وكتاب الحيوان، ورسائله جمع السندوبي، وكذا الدراسات الخاصة به سوى المقالات الكثيرة، راجع بشأنها معجم المؤلّفين لكحالة (١٢) ففي جميع ذلك ما يغنينا في ذكره، ولا يعنينا في أمره سوى التنبيه على إنكاره معجزة شق القمر .

فقد ذكر ذلك عنه المرزوقي في كتابه فقال: وأما انشقاق القمر فإنّ الجاحظ كان ينفيه، ويقول: لم يتواتر الخبر به، ويقول أيضاً: لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن يختلف التقويمات، لأنّه قد عُلم سيره في كل يوم وليلة، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير(١٣.(

فأما قوله تعالى:(اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (فإنّما معناه سينشق، ونحن نثبته ونقول يكون كذلك، دليلاً خُصَ به عبد الله بن مسعود)رضي الله عنه)، وإنّ سائر الناس لم يروه، لأنّ الله حال بينهم وبين رؤيته بغمامة أو غيرها، ويجوز أن يكون غير عبد الله رآه، فاقتصر في نقله على رواية عبد الله، وعلى ما نطق به القرآن من ذكره .

وسادسهم هشام بن عمرو الفوطي، من المعتزلة وله مقالات شاذة، كما له أتباع يسمون بالهشامية، وهم يقولون بجواز الإمامة، بمعنى عقدها في أيام الإتفاق والسلامة، أما في أيام الفتنة فلا ـ وهذا كذلك هو مذهب المحكّمة الأُولى من الخوارج، فإنّهم أجازوا ألا يكون في العالم إمام أصلاً ـ .

ومن مقالات الفوطي السيئة في القرآن عدم إعجازه وقال: إنّ القرآن لم يجعل عِلَماً للنبي وهو عرض من الأعراض، والأعراض لا يدلّ شيء منها على الله ولا على نبوة النبي، وفي كتب المقالات والفِرَق يجد الباحث أقوالاً شاذة أخرى، ومنها إنكاره معجزة شق القمر، كما أنّ في ترجمته في كتب التراجم نقولاً عنه شتى في ذلك .

فالذهبي ذكره في سير أعلام النبلاء وقال: أبو محمد الفوطي المعتزلي الكوفي ... صاحب ذكاء وجدال، وبدعة ووبال... (١٤. (

ونهى عن قول (حسبنا الله ونعم الوكيل) وقال: لا يعذّب الله كافراً بالنار، ولا يحيي أرضاً بمطر، ولا يهدي ولا يضلّ ...، وحكى عن المبرّد حكاية رجل مع هشام، وقد سأله عن عمره وتقعّره في الجواب، ثم قال الذهبي: هذا غاية ما عند هؤلاء المتقعّرين من العلم، عبارات وشقاشق لا يعبأ الله بها، يحرفون بها الكلم عن مواضعه قديماً وحديثاً، فنعوذ بالله من الكلام وأهله، ونحوه.

وفي تاريخ الإسلام (١٥)، وذكره في ذيل ترجمة داود الجواربي في ميزان الإعتدال، وعدّ جماعة هو منهم فقال: هذا الضرب لا أعلم له رواية... فلكونهم لم يرووا الحديث لم احتفل بذكرهم ولا استوعبتهم، فأراح الله منهم .

وقد ذكره ابن النديم في الفهرست (١٦) وذكر من مقالاته: إنّ الشيطان لا يدخل في الإنسان، وإنّما يوسوس له من خارج والله ـ جل عن ذلك ـ يوصل وسوسته إلى قلب ابن آدم ليبتليه .

وقال ابن الأثير في اللباب في تهذيب الأنساب (١٧): وأما الهشامية الثالثة فهم أصحاب هشام ابن عمرو الفوطي، وفضائحه كثيرة، منها انّه حرّم على الناس أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وقد نطق القرآن بذلك، وظن أنّ الوكيل يقتضي موكلاً، ولم يعلم أنّ الوكيل بمعنى الحفيظ، كقوله تعالى: (لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (١٨) أي بحفيظ .

وأخيراً نكتفي بما قاله القاضي عياض عنه وعن معمر الصيمري في الشفاء ...:(19)وكذلك من أنكر القرآن أو حرفاً منه ... أو زعم أنّه ليس بحجة للنبي(صلى الله عليه وآله) أو ليس فيه حجة ولا معجزة، كقول هشام الفوطي، ومعمر الصيمري، إنّه لا يدلّ على الله ولا حجة فيها لرسوله، ولا يدلّ على ثواب أو عقاب ولا حكم، ولا محالة في كفرهما بذلك القول، وكذلك نكفرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي(صلى الله عليه وآله) حجة له . ...

ويمكن إلحاق جماعة آخرين بمن تقدّم ذكرهم من النفاة، حيث وردت أسماؤهم في بعض المصادر فمنهم الحليمي كما ذكره الرازي في كتابه (نهاية العقول (فقال: أما الإنشقاق فقد منع الحليمي وقوعه، بحمل انشقاق القمر على أنّه سينشق، وإن سلّمنا وقوعه فلعلّ المشاهدين ما كانوا في حد التواتر، لأنّه آية ليلية، وأكثر الناس تحت السقوف فلذلك لم ينتشر .

ولا غرابة بعد أن عرفنا الحليمي من خلال ذكر الشريف الجرجاني له ولآخرين ممن منعوا صدور الكرامات للأولياء مطلقاً، فقد قال في شرح المواقف: المقصد التاسع: في كرامات الأولياء وأنّها جائزة عندنا، خلافاً لمن منع جواز الخوارق واقعة، خلافاً للأستاذ أبي إسحاق والحليمي منّا، وغير أبي الحسين من المعتزلة . (20) ..

إنّما الغرابة كل الغرابة أن يفاجأ القارئ بأنّ الحليمي هذا حكي عنه انشقاق القمر في عصره(!) فإلى رواية ذلك.

رواية الإمام الحليمي في رؤيته شق القمر في زمانه:

ذكر الشمس الصالحي الشامي في كتابه (سبيل الهدى والرشاد) (٢١) بعد كلام له حول معجزة شق القمر فقال: وذكر الإمام الحليمي أنّ القمر انشق في عصره، وأنّه شاهد الهلال في الليلة الثالثة منشقًّا نصفين، عرض كل واحد كعرض القمر ليلة أربع أو خمس، ثم اتصل فصار في شكل أترجة إلى أن غاب .

ونحن ازاء هذه الرواية نحتاج إلى الوقوف على معرفة هذا الراوي الموصوف بالإمامة، فمن هو ؟ وما مدى صدقه ؟ حتى يمكن لنا تصديقه .

ولا شك أنّ خير سبيل إلى معرفته، قراءة ترجمته بأقلام غير أهل مذهبه ونحلته، وحسبنا ما قاله الحافظ الذهبي في تذكرته، فهو الناقد الخبير في الرجال، وأكتفي به في هذا المجال في الحال .

قال في تذكرة الحفاظ (٢٢): الحليمي العلّامة البارع رئيس أهل الحديث بما وراء النهر، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي، صاحب وجوه حسان في المذهب، وكان من أذكياء زمانه ومن فرسان النظر، له يد طولى في العلم والأدب، أخذ عن الأستاذ أبي بكر القفّال و . ...

له تصانيف مفيدة، حدّث عنه أبو عبد الله الحاكم مع تقدمه ونبله و ...وهو من فرسان هذا الشأن مع أنّ له فيه عملاً جيداً، يقع لي حديثه عالياً، توفي في ربيع الأول سنة ثلاث وأربع مائة . ...

أقول: ثم ساق عنه حديثاً بإسناده إليه عالياً، فقال:

أخبرنا المسند الجليل شرف الدين أبو الفضل أحمد بن هبة الله بن تاج الأمناء سنة خمس وتسعين وست مائة بقراءة أبي الحجاج الحافظ عن عبد المعز ـ بن ـ محمد قال: أنا أبو القاسم المستملي، أنا أبو سعد أحمد بن عبد الرحمن النيسابوري، أنا الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي، أنا بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي، نا أحمد بن الحسين، نا مقاتل بن إبراهيم، نا نوح بن أبي مريم، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): لصاحب القرآن دعوة مستجابة عند ختمه .

ثم عقّب الذهبي بقوله: نوح الجامع مع جلالته في العلم ترك حديثه، وكذلك شيخه مع عبادته، فكم من إمام في فن مقصر عن غيره، كسيبويه مثلاً إمام في النحو ولا يدري ما الحديث، ووكيع إمام

في الحديث ولا يعرف العربية، وكأبي نواس رأس في الشعر عَريّ من غيره، وعبد الرحمن بن مهدي إمام في الحديث لا يدري ما الطب قط، وكمحمد بن الحسن رأس في الفقه ولا يدري ما القراءات، وكحفص إمام في القراءة تالف في الحديث. وللحروب رجال يعرفون بها .

وفي الجملة: وما اوْتوا من العلم إلا قليلا، وأما اليوم فما بقي من العلوم القليلة إلا القليل في أناس قليل، ما أقلّ من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

أقول: لو نشر الذهبي اليوم قبل يوم النشور، فماذا كان يقول بعدما مرّ في السطور من نفثة الصدور، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا ولو نطق الزمان إذاً هجانا

ونعود إلى الإمام الحليمي في روايته ورؤيته فنقول: لقد ذكر له الأسنوي في طبقات الشافعية ترجمة، حكى فيها عن إمام الحرمين قوله في النهاية عن الحليمي: كان الحليمي عظيم القدر، لا يحيط بكنه علمه إلّا غوّاص . ...

وقال الأسنوي: ومن مصنّفاته (شعب الإيمان) كتاب جليل جمع أحكاماً كثيرةً، ومعاني غريبة، لم أظفر بكثير منها في غيره (٢٣)، وترجمه ابن السبكي في طبقات الشافعية ترجمة مطوّلة، أورد فيها غرائب وعجائب من فتاوى الإمام الحليمي !؟ (24)فراجع .

الهوامش

- 1الرحمن: ٣٣.

- 2الذاريات : ٤٧.

- 3يس : ٤٠.

- 4التبيين لأسماء المدلّسين:٧ ط حلب سنة ١٣٥٠ هجـ .

- 5تحقيق الغاية بترتيب الرواة المترجم لهم في نصب الراية: ١٢٨ - ١٣٢.

- 6راجع موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٨. 419 – 418 :

- 7تهذيب التهذيب ٧ : ٢٠٢.

- 8قبول الأخبار ومعرفة الرجال ١: ٢٥٨ – ٢٥٩ ط دار الكتب العلمية بيروت.

- 9شرح المواقف في علم الكلام ٣: ٣٨.

- 10تاريخ بغداد ١٣: ١٦٤.

- 11تثبيت دلائل النبوة.

- 12معجم المؤلّفين ٨: ٧ – ٩ ط الترقي بدمشق سنة 1378هجـ.

- 13الأزمنة والأمكنة ١ :١١٥ ط حيدر آباد سنة ١٣٣٢ هجـ.

- 14سير أعلام النبلاء ١٠: ٥٤٧ ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤١٣هجـ بيروت.

- 15تاريخ الإسلام ١٦: ٤٤١ ط دار الكتاب العربي سنة ١٤٠٧ هجـ.

- 16الفهرست: ٢١٤ ط رضا تجدد.

- 17اللباب في تهذيب الأنساب ٣: ٣٨٩ ط دار صادر.

- 18الأنعام: ٦٦.

- 19الشفاء ٢: ٢٨٩ ط دار الفكر بيروت سنة ١٤٠٩ هجـ .

- 20شرح المواقف ٨: ٢٨٨.

- 21سبيل الهدى والرشاد ٩: ٤٣١ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٤ هـ.

- 22تذكرة الحفاظ ٣: ١٠٣٠ ط الهند حيدر آباد.

- 23طبقات الشافعية ١: ٤٠٤ تحقيق عبدالله الجبوري ط أوقاف بغداد.

- 24طبقات الشافعية ٤: ٣٣٣ – ٣٤٣ تحقيق الحلو والطناجي، ط عيسى البابي الحلبي بمصر

.

المبحث الثاني: في أدلّة إثبات معجزة انشقاق القمر من خلال أربعة محاور

-1عند المفسّرين.

-2عند المحدّثين.

-3عند المتكلّمين.

-4عند المؤرّخين.

وقبل ذلك عدّة مسائل :

المسألة الأولى :إنّ الشاك في مسألتي انشقاق القمر وردّ الشمس، لا يخلو حاله إمّا أن يقول باستحالة ذلك عقلاً أو عادة .

فأما زعم الإستحالة العقلية فليس بشيء بعد أن لم يكن ذلك من المحال العقلي الذي مثّلوا بإجماع الضدين مثلاً، فلا يبقى إلّا زعم الإستحالة عادة، وهذا هو معنى الإعجاز الذي يأتي به النبي(صلى الله عليه وآله) لإثبات غرضه مع التحدّي، وربما كان بدونه .

ثم إنّ المشكك المنكر إما أن يكون مؤمناً بالله تعالى أو غير مؤمن به ـ والعياذ بالله ـ والثاني لا كلام لنا معه، لأنّ الإيمان هو الأصل، والتصديق بالمعجزة فرع من الإيمان، والمؤمن بالله سبحانه ـ من أيّ الديانات كان أو المذاهب ـ وأياً كان موقعه من الدين ومبلغه من العلم، لا يسعه إنكار قدرة الباري جلّ وعلا، كما لا ينكر أصل الإعجاز وحدوث المعجزة للأنبياء، كيف وجميع الكتب السماوية تثبت ذلك .

وما دام الإنسان المسلم ـ مع غضّ النظر عن هويّته المذهبيّة ـ لا ينكر إمكان الوقوع، وإنّما هو قد يستبعد ثبوت الوقوع، فنقول له: إنّ مجرّد الاستبعاد في المقام ليس بشيء بعد بيان أدلّة الإثبات .

المسألة الثانية :لـمّا كان انشقاق القمر وردّ الشمس آيتان مرّ على حدوثهما عدّة قرون، فلا مناص لنا إلّا النظر في أدلّة إثباتهما نقلاً بعد تجاوزنا مرحلة التصديق عقلاً، فعلينا البحث من الآن في الأخبار التي وردت مثبتة لكل من الآيتين، ومن الطبيعي أن نقدّم البحث عن آية الإنشقاق لأنّها أقدم زماناً، وأقوى إيماناً حيث يثبتها القرآن الكريم .

المسألة الثالثة :إنّ سورة القمر مكية، كما هو رأي جملة من المفسرين، وإن قيل بنزول بعض آياتها بالمدينة المنوّرة، ولا عبرة بقول من زعم أنّها نزلت ببدر، وحسبنا معرفة شأن النزول فهو كافٍ في إثبات كونها مكية، وذلك إنّ المشركين سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية على صدقه، فدعا ربه أن يشق لهم القمر فاستجاب الله تعالى لنبيّه، كما سيأتي الحديث عن كيفية الإنشقاق في المسألة الآتية في معرفة من رأى ومن روى.

وقد استفاضت روايات أهل البيت(عليهم السلام) وروايات غيرهم باتفاق أهل الحديث والمفسّرين على قبول تلك الروايات، وعدّوا انشقاق القمر من جملة معجزات النبي (صلى الله عليه وآله)، ولم يأب ذلك إلّا نفرٌ لم يتجاوزوا العشرة، وهم الذين سميناهم النفاة، وهم الغواة إذ قالوا بآرائهم ما ليس مقبولاً عند الرواة، فقالوا :معنى انشق القمر سينشق عند قيام الساعة، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع.

وهذا من السخف الظاهر، لأنّ التعقيب عليه بقوله تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) شاهد على إعراضهم عند رؤيتهم تلك الآية العظيمة فقالوا: (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) وهذا القول لا معنى له في الآخرة إذ ليس في ذلك اليوم من يطلب منهم التصديق حتى يقولوا إنّه: (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) فيوم القيامة يوم جزاء ولا عمل، وهذا كافٍ في الدلالة على الوقوع في الدنيا .

المسألة الرابعة :لا شك في أنّ اليهود والنصارى قد استحوذوا على كثير من مواقع القوّة في هذه الحياة الدنيا، وزاولوا كثيراً من أساليب الخداع والتمويه لإغواء الناس ممن لا إيمان قوي لديهم فيصدهم عن الوقوع في شرك الصيادين، وازدادوا علّواً في الأرض وفساداً حين انتشرت مواقعهم على الانترنت سوى مالهم من مجلات وجرائد ووسائل إعلامية مرئية في الفضائيات أعجزت أولي القوة في الدنيا .

والذي يعنينا في المقام ما نشروه بعنوان (دراسة عقلانية موضوعية لخرافة انشقاق القمر) اقتربت الساعة وانشق القمر .

من أين أتى محمد بهذه الآية؟؟ بهذه الدراسة الساخرة نشروا دراستهم على الموقع، وسنأتي على ما في دراستهم من تهويش في آخر ما سنذكره من أدلّة الإثبات في خاتمة الباب إن شاء الله تعالى، والآن إلى :

المحور الأول: في أدلّة الإثبات عند المفسرين:

إنّ كتاب الله سبحانه الذي لا تنقضي عجائبه يحتوي على ما سلف من عبر الماضين وسير التالين، وأحكام العباد بالدينونة لرب العالمين، ولم يتركهم ربّهم من دون فهم لكتابه عن طريق نبيه (صلى الله عليه وآله) في شريف خطابه (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (١).

وكان له حفظة يحفظونه تلاوة ويفهمونه تدبّراً، وقد فهموا ما فيه من أفكار دقيقة ومعاني سامية، ربما تخفى على كثير من المسلمين ممّن أوتي حظاً من فهم، لذلك كان المفسّرون الأوائل من الصحابة الذين لا خلاف في شأنهم هم الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(صلى الله عليه وآله)، ثم تلميذه حبر الأُمة عبد الله بن عباس، ثم الباقون على مراتبهم في الحفظ والاستيعاب (٢).

وخضع بعض المفسّرين الذين لعقوا فتات الموائد عند الحاكمين فقالوا بأهوائهم، فكان الإنحراف الضال، وقد أخذوا دورهم في مروياتهم في كتب التفسير، وقد نبّه غير واحد إلى مروقهم، وكان الإسناد في التفسير بالمأثور أقلّ ضرراً من التفسير بالرأي، ووصل الحال ببعضهم إلى الخروج حتى على قواعد اللغة العربية، كما فيما نحن فيه في المقام، في آية الانشقاق، ولنقرأ بعض ما عند المفسّرين في ذلك .

ما الذي قاله المفسّرون ؟

سأذكر أقوال المفسّرين من مختلف المذاهب الإسلامية من شيعة وسنة بمن فيهم من الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة، وإلى القارئ بعض ما قالوه :

أولاً: من الشيعة ما قال الشيخ الطوسي في تفسير التبيان (٣ :(

ومن أنكر انشقاق القمر وأنّه كان، وحمل الآية على كونه فيما بعد، كالحسن البصري وغيره واختاره البلخي، فقد ترك ظاهر القرآن، لأنّ قوله (انشق) يفيد الماضي، وحمله على الاستقبال مجاز، وقد روى انشقاق القمر عبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وابن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وجبير بن مطعم، ومجاهد، وإبراهيم، وقد أجمع المسلمون عليه، ولا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لشذوذه، لأنّ القول به اشتهر بين الصحابة فلم ينكره أحد، فدلّ على صحته وأنّهم أجمعوا عليه، فخلاف من خالف فيما بعدُ لا يُلتفت إليه .

ومن طعن في انشقاق القمر بأنّه لو كان لم يخف على أهل الأقطار فقد أبعد (٤) ، لأنّه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، ولأنّه كان ليلاً فيجوز أن يكون الناس نياماً فلم يعلموا به، لأنّه لم يستمر لزمان طويل، بل رجع فالتأم في الحال، فالمعجزة تمّت بذلك .

ثانياً: ما قاله الطبري في تفسيره جامع البيان (٥:(

يعني تعالى ذكره بقوله: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ) دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة ... وقوله: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة، وذلك انّ كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم(صلى الله عليه وآله) انشقاق القمر آية، حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوته، فلما أراهم أعرضوا وكذّبوا وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد، فقال الله جلّ ثناؤه: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) . وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التأويل.

ثم ذكر الطبري الآثار المروية في ذلك، والأخبار عمّن قالها من أهل التأويل، فساق رواية أنس بستة أسانيد وهي صريحة في أنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين، وفي لفظ: فريقين، وفي لفظ: فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، ثم ساق رواية ابن مسعود قال: انشق القمر ونحن مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) بمنى حتى ذهبت منه فرقة خلف الجبل، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): اشهدوا.

وفي لفظ آخر عنه قال: رأيت الجبل من فرج القمر حين انشق، وفي لفظ ثالث أيضاً عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقالت قريش :هذا سحر ابن أبي كبشة سحركم، فسلوا السُفار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأيناه، فأنزل الله تبارك وتعالى: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. (

ثم استمر الطبري في ذكر بقية الآثار والأخبار عن حذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، ومجاهد، وأبي سنان، وإبراهيم ـ النخعي ـ .

ثالثاً: ما قاله الفخر الرازي الشافعي في تفسيره الكبير (٦:(

)اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) أول السورة مناسب لآخر ما قبلها، وهو قوله تعالى: (أَزِفَتْ الآزِفَةُ)، فكأنّه أعاد ذلك مع الدليل، وقال: قلت :أزفت الآزفة وهو حق إذا انشق القمر .

والمفسّرون بأسرهم على أنّ المراد أنّ القمر انشق، وحصل في الإنشقاق، ودلّت الأخبار على حديث الإنشقاق، وفي الصحيح خبر مشهود، رواه جمع من الصحابة وقالوا سئل رسول الله(صلى الله عليه وآله) آية الإنشقاق بعينها معجزة، فسأل ربه فشقّه ومضى .

وقال بعض المفسّرين: المراد سينشق، وهو بعيد ولا معنى له، لأنّ من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل، ومن يجوزه لا حاجة إلى التأويل، وإنّما ذهب إليه ذلك الذاهب، لأنّ الإنشقاق أمر هائل، فلو وقع لعتم وجه الأرض، فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر .

نقول: النبي (صلى الله عليه وآله) لما كان يتحدى بالقرآن، وكانوا يقولون: إنّا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام، وعجزوا عنه، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى . فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر .

وأما المؤرّخون فتركوه، لأنّ التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم، وهو لما وقع الأمر قالوا بأنّه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر، فتركوا حكايته في تواريخهم، والقرآن أدلّ دليل وأثبت مثبت له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه .

وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السماوات، وذكرناه مراراً فلا نعيده .

رابعاً: ما قاله القرطبي المالكي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن :(7)

قال: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) أي وقد انشق، وكذا قرأ حذيفة (اقتربت الساعة وقد انشق القمر) بزيادة (قد) وعلى هذا الجمهور من العلماء، ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وجبير بن مطعم ،وابن عباس .

وعن أنس قال: سأل أهل مكة النبي(صلى الله عليه وآله) آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) إلى قوله: (سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . (

ثم قال القرطبي: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول انّ القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنّها كانت آية ليلية، وأنّها كانت باستدعاء النبي(صلى الله عليه وآله) من الله تعالى عند التحدي ...

خامساً: ما قاله السيوطي الشافعي في الدر المنثور (٨ :(

أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة القمر بمكة .

وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة اقتربت الساعة . ...

أخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وابن جرير، وابن المنذر، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي(صلى الله عليه وآله) آية فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ- إلى قوله- سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) أي ذاهب، وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير عن أنس أنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله (أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم ـ وصحّحه ـ وابن مردويه ،والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر، عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل أن يخرج النبي(صلى الله

عليه وآله)، شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء، فقالوا: سحر القمر فنزلت: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . (

قال مجاهد: يقول كما رأيتم القمر منشقاً فإنّ الذي أخبركم عن اقتربت الساعة حق.

وأخرج عبد بن حميد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن جرير، وابن مردويه، من طريق أبي معمر عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) فرقتين، فرقة على الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اشهدوا .

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل من طريق الأسود عن عبد الله قال: رأيت القمر على الجبل وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي (صلى الله عليه وآله)، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السُفار فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السُفار، فسألوهم فقالوا :نعم قد رأيناه، فأنزل الله: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. ...(

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي عن جبير بن مطعم في قوله: (انْشَقَّ الْقَمَر) قال: انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) حتى صار فرقتين، فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل، فقال الناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فإنّه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . ...

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس في قوله: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) قال: اجتمع المشركون على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاصي بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحرث فقالوا للنبي(صلى الله عليه وآله): إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، فقال لهم النبي(صلى الله عليه وآله) إن فعلت تؤمنوا ؟ قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله(صلى

الله عليه وآله) ربّه أن يعطيه ما سألوا، فامسى القمر نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان، ورسول الله(صلى الله عليه وآله) ينادي: يا أبا سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم اشهدوا .

وأخرج أبو نعيم من طريق عن ابن عباس قال: انتهى أهل مكة إلى النبي(صلى الله عليه وآله) فقالوا: هل من آية نعرف انك رسول الله ؟ فهبط جبريل فقال: يا محمد قل يا أهل مكة إن تختلفوا هذه الليلة فسترون آية، فأخبرهم رسول الله)صلى الله عليه وآله) بمقالة جبريل، فخرجوا ليلة أربع عشرة، فانشق القمر نصفين، نصفاً على الصفا ونصفاً على المروة، فنظروا بأبصارهم فمسحوها ثم أعادوا النظر، فنظروا ثم مسحوا أعينهم ثم نظروا، فقالوا: يا محمد ما هذا إلّا سحر ذاهب، فأنزل الله: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . (

سادساً: قال الجزيّ في التسهيل لعلوم التنزيل في سورة القمر (٩(، هذا إخبار بما جرى في زمان رسول الله(صلى الله عليه وآله) وذلك أن قريشاً سألته آية فأراهم انشقاق القمر فقال (صلى الله عليه وآله): اشهدوا، وقال ابن مسعود: انشق القمر فرأيته فرقتين فرقة وراء الجبل وأخرى دونه، وقيل: معنى انشق القمر إنّه ينشق يوم القيامة، وهذا قول باطل تردّه الأحاديث الصحيحة الواردة بانشقاق القمر، وقد اتفقت الأُمة على وقوع ذلك، وعلى تفسير الآية بذلك إلّا من لا يعتبر قوله: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) هذه الضمائر لقريش، والآية المشار إليها انشقاق القمر، وعند ذلك قالت قريش سحر محمد القمر .

سابعاً: وقال الحافظ ابن شهرآشوب: أجمع المفسّرون والمحدّثون سوى عطا والحسن والبلخي في قوله تعالى: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (إنّه قد اجتمع المشركون ليلة بدر(١٠) إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقالوا: إن كنت صادقاً فشقّ لنا القمر فرقتين، قال:إن فعلت تؤمنون ؟ قالوا: نعم، فأشار إليه بإصبعه فأنشق شقتين رؤي حراء بين فلقيه ـ وفي رواية نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قيقعان، وفي رواية نصف على الصفا ونصف على المروة ـ فقال (صلى الله عليه وآله :(اشهدوا اشهدوا، فقال ناس: سحرنا محمد، فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم، وكان ذلك قبل الهجرة، وبقي قدر ما بين العصر إلى الليل وهم ينظرون إليه ويقولون هذا

سحر مستمر، فنزل: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا) قارن تفسير السمعاني والبغوي والسمرقندي وغيرهم .

وفي رواية: إنّه قدم السّفار من كل وجه، فما من أحد قدم إلّا أخبرهم أنّهم رأوا مثل ما رأوا ، قال نصر بن المنتصر :

والقمر البدر المنير شقّه فقيل سحر عجب لما رأى

تمام البرهان في الميزان:

قال المرحوم السيد الطباطبائي في تفسير الميزان (١١ :(

كلام فيه إجمال القول في شق القمر: آية شق القمر بيد النبي(صلى الله عليه وآله) بمكة قبل الهجرة باقتراح من المشركين ممّا تسلّمها المسلمون بلا ارتياب منهم .

ويدلّ عليها من القرآن الكريم دلالة ظاهرة قوله تعالى: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)(١٢) فالآية الثانية تأبى إلّا أن يكون مدلول قوله: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) آية واقعة قريبة من زمان النزول أعرض عنها المشركون كسائر الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا سحر مستمر، ويدلّ عليها من الحديث روايات مستفيضة متكاثرة رواها الفريقان وتسلّمها المحدّثون، وقد تقدّمت نماذج منها في البحث الروائي .

فالكتاب والسنّة يدلّان عليها، وانشقاق القمر كرة من الكرات الجوية ممكن في نفسه لا دليل على استحالته العقلية، ووقوع الحوادث الخارقة للعادة ـ ومنها الآيات والمعجزات ـ جائز .

وقال: ومن الاعتراض عليها ما قيل: إنّ الإنشقاق لا يقع إلا ببطلان التجاذب بين الشقين وحينئذٍ يستحيل الإلتيام، فلو كان منشقاً لم يلتئم أبداً .

والجواب عنه انّ الاستحالة العقلية ممنوعة، والاستحالة العادية بمعنى اختراق العادة لو منعت عن الإلتيام بعد الإنشقاق، لمنعت أولاً عن الإنشقاق بعد الإلتيام ولم تمنع، وأصل الكلام مبني على جواز خرق العادة .

تطوّر جديد في تفسير القرآن عند مُحدثي المفسّرين:

لقد قرأنا شيئاً من أقوال المفسّرين الأوائل حول معجزة انشقاق القمر، ومرّ بنا أن! الذين خالفوهم في تلك الرؤية ثلاثة من الأوائل، هم الحسن وعطاء والبلخي، وتبعهم أربعة من الزوامل، وذكرت ما وسع المجال للمقال في تعريفهم، غير أنّ في المتأخّرين المعاصرين وقريباً منهم من نحا نحوهم، فتلمظ أقوال النافين على استحياء، بعد وضوح خلافهم لإجماع المفسّرين والمحدّثين الذين مرّ بنا قريباً ذكره عن الحافظ ابن شهرآشوب .

ولا ينقضي العجب من أمثال المشايخ المصريين: طنطاوي والمراغي وسيد قطب، فلهم مواقف متأرجحة بين النفي والإثبات، ويظهر منهم الميل إلى النفي، فلنقرأ ماذا عند المشايخ.

أولاً : رأي الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الجواهر(١٣ :)

مذكرات بالساعة وعذاب الدنيا بالهلاك، التفسير اللفظي :

بسم الله الرحمن الرحيم (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) أي سينشق يوم القيامة، أو أنّه قد انشق، كما روي عن أنس: (إنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين (أخرجه البخاري ومسلم، وكيفية ذلك أنه انشق فلقتين: فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه، ومعنى هذا أنّه يقول سبحانه: اقتربت القيامة، وهاهو ذا القمر انشق من الآن، كما تقول: أقبل الأمير وقد جاء البشير بقدومه، فإنّ انشقاق القمر دلالة على ما سيؤول عليه حال العوالم العلوية والسفلية، فإنّ مآلها الإنحلال والبوار .

يقول الله: انظروا أيها الناس، إنّكم تظنون الكواكب والشمس والقمر لا يعتريها البلى، إنّ القمر يقبل الفناء، والدليل على ذلك انشقاقه الذي استبان لكم، ليدلّكم على أنّه سيبيد من الوجود كما تبيد أرضكم، والممكنات بأسرها تقبل الفناء .

يقول المؤلّف: ومن العجب أنّ علماء الهيئة في العلم الحديث لم يذكروا أنّ شيئاً اشتق من الأرض إلّا القمر .

ويقولون: إنّه أثناء دورانها قديماً انحلّ عنها ودار حولها، وهذا نوع من الإنشقاق، ولكنه انشق من غيره، وانشقاق القمر من الأرض دليل على أنّ الأرض تبدل غير الأرض والسموات، فإذن يكون انشقاق القمر في القرآن من المعجزات العلمية، لا من حيث انّ قريشاً رأوه منشّقاً، وجبل حراء بين فلقتيه على رواية ابن مسعود فحسب، بل إنّ هذا حصل زمن النبوة تذكرة بانشقاقه من الأرض وانفصاله عنها، فكما انشق القمر نصفين هكذا كان هو مع الأرض سابقاً وانشقت الأرض فانفصل عنها القمر، ومعنى هذا تجزّؤ المادة وفناؤها وذهابها وتبدّلها، هذا ما تشير إليه الآية، وإلا فلماذا خصّ القمر بالإنشقاق ؟

ولماذا لم يختر الله له الشمس أو كوكباً من الكواكب، ذلك لهذه النكتة، وهو أنّ القمر هو محل البحث الحديث، وأنّ له انشقاقاً عن غيره، فانشقاقه شقين عن الجبل، ودونه يشير إلى ما كان له ذلك من انشقاقه من الأرض، ويكون ذلك من دواعي العلم والكشف والبحث .

وقال في معنى الآية: إنّ القمر قطعة من الأرض، وهي جزء من الشمس انفصلت عنها، فهما ـ القمر والأرض ـ من التوابع للشمس، وانّ الإنشقاق المراد بهذه الآية (انْشَقَّ الْقَمَرُ) هو انفصال القمر عن الأرض (؟ . (!

وهذا الرأي ما أنزل الله به من سلطان، ولا قامت عليه حجة ولا برهان، ويأبى عليه التصديق به والإذعان ما تعقّب الآية من قوله تعالى حكاية عن حال المكذّبين: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) إذ لم ينقل عن أحد أنّه قال بانشقاق القمر عن الأرض سحر مستمر، وفات على فضيلة الشيخ أنّ لفظ (آية) نكرة في سياق الشرط يفيد العموم، بمعنى أنّهم كلما رأوا آية قالوا :)سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . (

ثانياً: رأي الشيخ محمد مصطفى المراغي في تفسيره (١٤ :(

وهذا أعجب وأغرب فقد قال: إن آية الإنشقاق خبر عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماضٍ فقال: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) أي وسينشق وينفصل بعضه من بعض حين يختلّ هذا العالم وتبدّل الأرض غير الأرض، ونحو هذا قوله: (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (وقوله: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) وكثير غيرها من الآيات الدالّة على الأحداث الكبرى التي تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة .

ويرى جمع من المفسّرين أنّ هذا حدث قد حصل، وأنّ القمر صار فرقتين على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) قبل الهجرة بنحو خمس سنين، فقد صحّ من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله (فرقتين، فرقة على الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) اشهدوا .

وجاء عنه أيضاً : انشق القمر على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فقال رجل: انتظروا ما يأتيكم به السُفار، فإنّ محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس، فجاء السُفار فاخبروهم بذلك . رواه أبو داود الطيالسي.

وفي رواية البيهقي: فسألوا السُفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا :رأيناه، فأنزل الله تعالى: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) ثم قال المراغي: والذي يدلّ على أنّ هذا إخبار عن حدث مستقبل لا عن انشقاق ماضٍ أُمور:

-1إنّ الإخبار بالإنشقاق أتى اثر الكلام على قرب مجيء الساعة، والظاهر تجانس الخبرين، وأنّهما خبران عن مستقبل لا عن ماضٍ .

-2إنّ انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حداً لا يمكن أحداً أن ينكره، وصار من المحسوسات التي لا تدفع، ولصار من المعجزات التي لا يسع مسلماً ولا غيره إنكارها .

-3ما ادعى أحد من المسلمين إلّا من شذّ إنّ هذه معجزة بلغت حد التواتر، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادا، بل كانوا لا يعدون كثرة .

-4إنّ حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابي الجليل خطب الناس يوم الجمعة في المدائن حين فتح فارس فقال: ألا إنّ الله تبارك وتعالى يقول) :اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)، ألا وإنّ الساعة قد اقتربت، ألا وانّ القمر قد انشق، ألا وانّ الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة .

فهذا الكلام من حذيفة في معرض قُرب مجيء الساعة وتوقّع أحداثها، لا في كلام عن أحداث قد حصلت تأييداً للرسول وإثباتاً لنبوته، لأنّ ذلك كان في معرض العظة والإعتبار.

أقول: انظروا إلى الشيخ المراغي كيف راغ وزاغ، فهو ينقل عن الشيخين ـ البخاري ومسلم ـ في الصحيحين وعن ابن جرير حديث أنس وابن مسعود في وقوع الإنشقاق، وعنده وعند قومه ما رواه الشيخان متفق عليه، يعني لا شك فيه، ثم رجع عن ذلك مستدلاً بأربعة أُمور على أنّه حدث مستقبل .

وللرد على أُموره، نقول أما الأول وهو تجانس الخبرين في (اقترب وانشق) فنقول له ما رأيه في قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) هل عنده أنّ العبادة قبل الإستعانة ؟ لتجانس الخبرين، أوليست الإستعانة هي قبل العبادة ليكون العبد قادراً عليها، وأصرح من ذلك في قوله تعالى) :فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) أو ليس النذُرُ هم في الدنيا والعذاب في الآخرة ؟ وقد مرت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وأما ردنا ثانياً على قوله: لو كانت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم ...، فنقول له: إنّ كثيراً من الأحداث الهائلة مرّت في الدنيا ولم يتناقلها جميع أهل الأرض كطوفان سيدنا نوح (صلى الله عليه وآله) ومع طول مكثه ستة أشهر أو أقل، ومع ذلك فقد أنكره الفرس والصينيون وكثير من الشعوب الشرقية، بينما تناقله الغربيون لاسيما بعد التنقيبات الحديثة، وأيضاً وقوف الشمس ليوشع بن نون وصي موسى (عليهما السلام) في حربه ضد (الآموريين) فهذه الحادثة الهائلة العالمية أيضاً لم يتناولها المؤرخون، ولولا الكتب المقدسة لضاع خبرها .

وأما ثالثاً زعمه أنّه لم يدّع التواتر إلا من شذّ، ولماذا هذا شاذ، ومن أنكر يكون غير شاذ ؟ إنّه منطق مفلوج .

وأما رابعاً ما نقله من خطبة حذيفة فهو في نقله صادق صائب، لكنه في تفسيره خاسر خائب، ويقال له: اقلب تصب، وذلك أنّ حذيفة كان يقرؤها (قد انشق القمر (فمن كانت قراءته كذلك، لا يجعل من قوله في خطبته بالمدائن دليلاً على نفي الوقوع، مع أنّ هناك من استدل بقول حذيفة على الوقوع كما سيأتي .

ثالثاً: رأي السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن حيث بدا متأرجحاً بين الفريقين، فهو يصدّق بوقوع انشقاق القمر بالنص القرآني والروايات المتواترة ـ على حد تعبيره ـ لكنه سرعان ما ينكص عند تعليله الذي ذكرته بعض الروايات، ولئلا نتجنّى عليه فللقرّاء ما قال :

فالقول بأنّ انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية ـ أي خارقة ـ يبدو بعيداً عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب ـ عن طريق القرآن ـ إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق وفي أحداث التاريخ سواء. ...

فأما ما وقع فعلاً للرسول(صلى الله عليه وآله) من خوارق شهدت بها روايات صحيحة، فكان إكراماً من الله لعبده، لا دليلاً لإثبات رسالته .

ومِن ثمّ نثبت ـ حادث انشقاق القمر ـ بالنص القرآني، وبالروايات المتواترة التي تحدّد مكان الحادث وزمانه وهيئته، ونتوقّف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات، ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة، باعتبار هذه الإشارة لمسة القلب البشري ليستيقظ ويستجيب (١٥ .)

ولعلّ أقومهم طريقة، وأحسنهم سليقة هو الشيخ محمد محمود حجازي من علماء الأزهر في كتابه (التفسير الواضح)(١٦) فقد قال: سورة القمر، وهي مكية كلها في قول الجمهور، وهو الصحيح ... ثم ذكر ثماني آيات من أول السورة، وفسرّ المفردات ثم ذكر في ص٣٤ رواية أنس قال: خطب رسول الله(صلى الله عليه وآله) وقد كادت الشمس تغيب فقال: (ما بقي من دنياكم فيما مضى إلّا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى) قال الراوي: وما نرى من الشمس إلّا يسيراً.

وثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وغيرهم أنّه قال: سأل أهل مكة النبي(صلى الله عليه وآله) آية فانشق القمر، ورواية البخاري انشق القمر فرقتين، وقد كذبه أهل مكة، وقالوا: سحرنا ابن أبي كبشة، فنزلت الآية) :اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ...) إلى أن قال: فانشقاق القمر آية ظاهرة على هذا القرب وعلى إمكانه في العقول والأذهان، وقيل: إنّه آية على قرب الوقوع ومعجزة للنبي(صلى الله عليه وآله) كما مضى، وعلى ذلك فانشقاق القمر من معجزاته(صلى الله عليه وآله)، ويؤيّده الحديث السابق أول الكلام، وظاهر الآيات هنا،

فإنّ قوله تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) يقتضي أنّ الإنشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها وكذّبوا بها.

ورأى بعضهم أنّ انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة وقت طلوعه، لا انفلاقه فلقتين كما روي في البخاري .

وبعضهم يرى أنّه كناية عن وضوح الأمر وظهوره، ولست أرى داعياً إلى إنكار انشقاق القمر على أنّه معجزة، فالمعجزة أمر خارق للعادة، وعدم تواتره لا يقدح، فإنّها آية ليلية، وقد ذكرت في القرآن والصحيح أنّ منكرها لا يكفر بها لعدم تواترها في السنة، وليست الآية نصاً فيها .

هذه نماذج من التفاسير الجديدة لمشايخ العلم في الأزهر الشريف، وكم فيها من الآراء والأهواء، ما صار سبباً للإغواء والإغراء، لدى الغوغاء والدهماء، مع أنّ أصحابها إن لم يكونوا رووا فقد رأوا ما في تراث المسلمين جميعاً من قوله (صلى الله عليه وآله b :(من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار v وقوله الآخر(صلى الله عليه وآله): (من فسّر القرآن برأيه فأصاب تكتب ـ كتبت ـ عليه خطيئة v وقوله)صلى الله عليه وآله b :(من فسّر القرآن برأيه وهو على وضوء ـ وضوئه ـ فليُعد الوضوء)(١٧.(

المحور الثاني: ماذا عند المحدّثين ؟

لقد مرّت بنا بعض الأحاديث في وقوع معجزة انشقاق القمر، فيما قرأناه عند المفسّرين، وفي ذلك كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولكن لزيادة طالب المزيد، نذكر ما عند المحدّثين، ونبدأ بذكر من روى الحديث من الصحابة، ثم من أخرج أحاديثهم من أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن والسير .

1ـ الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)، ذكره غير واحد منهم القاضي عياض والملا علي القارئ في شرح الشفاء (١٨) فقال: (فقال علي) كرّم الله وجهه (من رواية أبي حذيفة الأرحبي) وهو من الثقات المشهورين (انشق القمر ونحن مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) والجملة حالية، وضمير نحن لعليّ ومن كان معه . ..

-2عبد الله بن مسعود، وحديثه أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (باب انشقاق القمر) وأخرجه مسلم في صفات المنافقين (باب انشقاق القمر) وأخرجه الترمذي في التفسير (باب ومن سورة القمر) وقبلهم أخرجه أحمد في المسند(١٩) وابن جرير في التفسير في سورة القمر كما مرّ وغيرهم وغيرهم . حتى زاد السيوطي في الدر المنثور في نسبته إلى عبد بن حميد والحاكم وصحّحه وابن مردويه.

وقال السيوطي في تفسير قوله تعالى: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) عن ابن مسعود قوله: كل ما وعدنا الله ورسوله فقد رأيناه غير أربع: طلوع الشمس من مغربها، والدجّال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، فأما الدخان فقد مضى، وكان سنيّ كسنيّ يوسف، وأما القمر فقد انشقّ على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وأما البطشة الكبرى فيوم بدر.

أقول: وأما حديثه في الإنشقاق فقد قال: رأيت القمر منشقّاً شقتين بمكة قبل مخرج النبي (صلى الله عليه وآله)، شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء، فقالوا: سحر القمر، فنزلت: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) يقول :كما رأيتم القمر منشقاً، فإنّ الذي أخبرتكم عن اقتراب الساعة حق .

-3جبير بن مطعم، وحديثه أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٢٠) في ترجمة محمود بن أحمد أبو بشر الكرجي رواه بسنده عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: انشق القمر ونحن مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمكة ...وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢١ . (

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٢. (

-4حذيفة بن اليمان، وأخرج حديثه غير واحد، منهم ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمته (٢٣)، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٤) بسنده عن أبي عبد الرحمن السُلمي قال: جمّعت ـ يعني صلّيت الجمعة ـ مع حذيفة بالمدائن فسمعته يقول: إنّ الله تعالى يقول: (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) ألا إن القمر قد انشق على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ألا انّ الساعة قد اقتربت ...قال الملا علي القاري في شرح الشفاء ص٢ بهامش نسيم الرياض: ويؤيّده قراءة حذيفة :(وقد انشق القمر) ويقوّيه قوله (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً) أي معجزة (يُعْرِضُوا) أي عن الإيمان بها (وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) أي دائم لترادف الآيات وتتابع المعجزات .

-5عبد الله بن عباس، وحديثه في صحيح البخاري، قال ابن حجر في فتح الباري (٢٥): ذكر عن ابن عباس أسماء الذين طلبوا من النبي(صلى الله عليه وآله (انشقاق القمر، ومَن هم الذين خاطبهم بقوله: اشهدوا، نقلاً عن دلائل النبوة لأبي نعيم من حديث ابن عباس t أنّ السائل الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاصي بن وائل، والعاصي بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وابنه زمعة، والنضر بن الحارث، وهم الذين قالوا سحرهم، والمخاطب بقوله: اشهدوا، أبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وابن مسعود.

وذكر الطحاوي أيضاً حديث ابن عباس، ونختم الكلام بما قاله ابن عباس tفي تفسير قوله تعالى: (فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) قال: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج، وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكّوا في تلك الرؤية، وبقوا مصرّين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر، وما خُصّ به النبي(صلى الله عليه وآله) من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله (٢٦ .)

-6أنس بن مالك، وحديثه أخرجه البخاري في باب انشقاق القمر في مناقب الأنصار، ومسلم أيضاً بعدة أسانيد عنه قال: إنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين.

قال البيهقي في دلائل النبوة (٢٧): رواه البخاري في الصحيح عن عبد الله بن محمد، ورواه مسلم عن زهير بن حرب كلاهما عن يونس بن محمد، ثم ذكر له روايتين وقال: وكان يذكر هذا الحديث عند تفسير هذه الآية (:اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وقال: رواه البخاري عن يزيد بن زريع إلا أنه لم يذكر فيه ولا في حديث يونس بن محمد عن شيبان قوله (مرّتين) وقد حفظه عن قتادة هؤلاء الثلاثة، والله أعلم .

-7عبد الله بن عمر، وحديثه أخرجه مسلم في باب انشقاق القمر في صفات المنافقين، بعدّة أسانيد عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر في قوله)عز وجل): (اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) انشق

فلقتين، فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): اللّهمّ اشهد .

والآن إلى ما قاله المحدّثون:

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وقد ورد انشقاق القمر أيضاً من حديث علي وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم، فأما أنس وابن عباس فلم يحضرا ذلك، لأنّه كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، وكان ابن عباس إذ ذاك لم يولد، وأما أنس فكان ابن أربع أو خمس بالمدينة، وأما غيرهما فيمكن أن يكون شاهد ذلك، وممّن صرّح برؤية ذلك ابن مسعود .

وقال: وجدت في بعض طرق حديث ابن عباس بيان صورة السؤال، وهو وإن كان لم يدرك القصة، لكن في بعض طرقه ما يشعر بأنّه حمل الحديث عن ابن مسعود، فأخرج أبو نعيم في الدلائل من وجه ضعيف عن ابن عباس قال: اجتمع المشركون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي (صلى الله عليه وآله :(إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربّه فانشق، فقال: اشهدوا (٢٨ . (

وقال أيضاً: ذهب بعض أهل العلم من القدماء أنّ المراد بقوله) :انْشَقَّ الْقَمَرُ) أي سينشق كما قال تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ) أي سيأتي . والنكتة في ذلك إرادة المبالغة في تحقق وقوع ذلك، فنزّل منزلة الواقع، والذي ذهب إليه الجمهور أصح، كما جزم به ابن مسعود وحذيفة وغيرهما، ويؤيّده قوله تعالى بعد ذلك: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) فإنّ ذلك ظاهر في أنّ المراد بقوله: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) وقوع انشقاقه، لأنّ الكفّار لا يقولون ذلك يوم القيامة، وإذا تبيّن أنّ قولهم ذلك إنمّا هو في الدنيا تبيّن وقوع الإنشقاق وأنّه المراد بالآية التي زعموا أنّها سحر أهـ(٢٩.(

قال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجمّ الغفير إلى أن انتهى إلينا، ويؤيّد ذلك بالآية الكريمة، فلم يبق لاستبعاد من استبعد من عذر، وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين، وأيضاً فإنّ زمن الإنشقاق لم

يطل ولم تتوفّر الدواعي على الإعتناء بالنظر إليه، ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك، فجاءت السُّفار وأخبروا بأنّهم عاينوا ذلك (٣٠ . (

وقال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنّه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس ممّا يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر، وقد أنكر ذلك بعضهم، فقال: لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنّه أمرٌ صدر عن حسّ ومشاهدة، فالناس فيه شركاء، والدواعي متوفّرة على رؤية كل غريب، ونقل ما لم يعهد، فلو كان لذلك أصل لخلّد في كتب أهل التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه، وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره (٣١ . (

والجواب عن ذلك أنّ هذه القصّة خرجت عن بقية الأُمور التي ذكروها، لأنّه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلاً، لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياماً ومستكنين بالأبنية، والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنّه كان في ذلك مشغولاً بما يلهيه من سَمَرٍ وغيره، ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه، فقد يجوز أنّه وقع ولم يشعر به أكثر الناس، وإنمّا رآه من تصدّى لرؤيته ممّن اقترح وقوعه .

ولعلّ ذلك إنمّا كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر (٣٢ . (

قال الصالحي في كتابه سبل الهدى والرشاد في الباب الثالث من أبواب معجزاته (صلى الله عليه وآله) في الجزء التاسع تنبيهات :

الأول: لم ينشق القمر لأحد غير نبيّنا(صلى الله عليه وآله .(

الثاني: وقع في بعض الروايات عن أنس: فأراهم انشقاق القمر بمكة مرتين، رواه الإمام أحمد ومسلم، قال الحافظ ابن كثير: في ذلك نظر، والظاهر أنّه أراد فرقتين، وتكلّم ابن القيم على هذه الرواية فقال: المرات يراد بها الأفعال تارة والأعيان أُخرى، والأول أكثر، ومن الثاني انشق القمر مرتين، أي شقتين وفرقتين، وقد خفي على بعض الناس فادعى أن انشقاق القمر وقع مرتين، وهذا ممّا يعلم أهل الحديث والسير أنّه غلط، لأنّه لم يقع إلّا مرة واحدة .

وقال البيهقي: قد حفظ ثلاثة من أصحاب قتادة وهم سعيد بن أبي عروبة، ومعمر بن راشد، وشعبة، لكن اختلف عن كل منهم في هذه اللفظة، ولم يختلف على شعبة وهو أحفظهم، ولم يقع في شيء من طرق حديث ابن مسعود بلفظ مرتين، إنّما فيه: (فرقتين) أو)فلقتين) بالراء أو باللام، كذا في حديث ابن عمر (فلقتين)، وفي حديث جبير بن مطعم)فرقتين) وفي لفظ عنه (فانشق باثنتين.(

وفي رواية عن ابن عباس عن أبي نعيم في الدلائل: فصار (قمرين)، وفي لفظ (شقين)، وعند الطبراني من حديثه: (حتى رأوا شقين . (

أقول: ونقل عن السيد الشريف الجرجاني في شرح المواقف، وعن ابن السبكي في شرح المختصر: انّ الحديث متواتر لا يمتري في تواتره عند أهل السنة .

وقال الصالحي: ثم انّ ذلك أنّه وقع في الليل، وزمان الغفلة، وكان في زمان قليل، ورؤية القمر في بلد لا تستلزم رؤيته في جميع البلاد، ضرورة اختلاف المطالع، فقد يكون القمر طالعاً على قوم غائباً عن آخرين، ومكسوفاً عند قوم غير مكسوف عند آخرين، والإعتناء بأمر الارصاد لم يكن بمثابته اليوم، وغفلة أهلها لحظة غير مستبعد، والإنشقاق لا تختلف به منازله، ولا يتغيّر به سيره، غاية ما في الباب أن يحدث في القطعة الشرقية قوة سير لتلحق أختها الغربية.

وأيّ مانع من أن يخلق الله تعالى فيها من السرعة نحو ما خلق الله سبحانه في ضوء الشمس، فقد قال أهل الحكمة الجديدة أنّ بين الأرض والشمس ثلثمائة ألف فرسخ وأربعين ألف فرسخ، وأنّ ضوءها ليصل إلى الأرض في مدّة ثمان دقائق وثلاث عشرة ثانية، فيقطع الضوء في كل ثانية سبعين ألف فرسخ، ولا يلزم أن يعلم سبب كل حادث، بل كثير من الحوادث المتكرّرة المشاهدة لم يوقف على أسبابها، كرؤية الكواكب قريبة مع بُعدها المفرط، فقد ذكروا أنّهم لم يقفوا على سببه، ويكفي في ذلك عدم وقوفهم على سبب الإبصار بالعين على الحقيقة، ولو أخبرهم مخبر بفرض إن لم يكن لهم أبصار بخواص البصر مع كونه قطعة شحم صغيرة معروفة أحوالها عند أهل التشريح، لأنكروا عليه غاية الإنكار، وكذّبوه غاية التكذيب ونسبوه إلى الجنون .

ومن سلم تأثير النفوس إلى حد أن يصرع الشخص بمجرد النظر إليه وتوجيه نَفسَه نحوه، لم يستبعد أن يكون هناك سبب نحو ذلك، وقد صحّ في إصابة العين أنّ بعض الأعراب ممّن له عين

صائبة يفلق سنام الناقة فلقتين، وربما تصور له من رمل فينظر إليه ويغلفه، فينفلق سنامها مع عدم رؤيته لها نفسها، وهذا كله من باب المماشاة، وإلّا فإرادة الله تعالى كافية في الإنشقاق، وكذا في كل المعجزات وخوارق العادات.

ولو كان لكل حادث سبب لزم التسلسل، وقد قامت الأدلّة على بطلانه، وكون الخرق يوجب صوتاً هائلاً ممنوع فيما نحس فيه، ومثله التجاذب، والأجسام مختلفة من حيث الخواص، فلا يلزم اتحاد جرم القمر والأرض فيها، ويمكن أن يكون احدى القطعتين كالجبل العظيم بالنسبة إلى الأرض إذا ارتفع عنها بفاس مثلاً جذبته إليه إذا لم يخرج عن حد جذبها على ما زعموه، ويلتزم في تلك القطعة عدم الخروج عن حد الجذب، على أنّا في غنى عن كل ذلك أيضاً بعد إثبات الإمكان لشمول قدرته (عز وجل)، وأنّه سبحانه فعّال لما يريد .

والحاصل أنّه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد، ولا يستطيع أن يأتي بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق، والاستبعاد في مثل هذه المقامات قريب من الجنون عند من له عقل سليم .

وروي عن الحسن أنّه قال هذا الإنشقاق بعد النفخة الثانية، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وروى ذلك عن عطاء أيضاً، ويؤيّد ما تقدّم الّذي عليه الأكثرون قراءة حذيفة (وقد انشق القمر) فإنّ الجملة عليها حالية فتقضى المقارنة لاقتراب الساعة ووقوع الإنشقاق قبل يوم القيامة، وكذا قوله: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) وإن يروا آية يعرضوا فإنّه يقتضي أنّ الإنشقاق آية رأوها وأعرضوا عنها .

وقد أجاب أبو اسحاق الزجاج في المعاني فقال: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملّة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه لأنّ القمر مخلوق له، يفعل فيه ما يشاء كما يكوّره يوم البعث ويفنيه، وأما قول بعضهم لو وقع لجاء متواتراً، واشترك أهل الأرض في معرفته، ولما اختص بها أهل مكة.

فجوابه: انّ ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام، وقلّ من راصد السماء إلّا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة، أي ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل، ولا يشاهدها إلا الآحاد، فكذلك الإنشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها. ...

وذكر الإمام الحليمي أنّ القمر انشق في عصره، وأنّه شاهد الهلال في الليلة الثالثة منشقاً نصفين، عرض كل واحد كعرض القمر ليلة أربع أو خمس، ثم اتصل فصار في شكل أترجه إلى أن غاب (٣٣. (

أقول: ولابن قتيبة كلام في ردّه على النظام بعض مقالاته الفاسدة في طعنه على الخلفاء وبعض الصحابة، ومنها قوله في ابن مسعود حيث قال: وزعم أن القمر انشق وأنه رآه، وهذا من الكذب الّذي لا خفاء به، لأنّ الله تعالى لا يشق القمر له وحده، ولا لآخر معه، وإنّما يشقّه ليكون آية للعالمين، وحجة للمرسلين، ومزجرة للعباد، وبرهاناً في جميع البلاد، فكيف لم تعرف بذلك العامة، ولم يؤرخ الناس بذلك العام، ولم يذكره شاعر، ولم يسلم عنده كافر، ولم يحتج به مسلم على ملحد . ...

فقال ابن قتيبة في رده: ثم طعنه على عبد الله بن مسعود t بقوله إنّ القمر انشق وأنّه رأى ذلك، ثم نسبه فيه إلى الكذب، وهذا ليس بإكذاب لابن مسعود، ولكنه بخس لعلم النبوة، وإكذاب للقرآن العظيم، لأنّ الله تعالى يقول: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) فإن كان القمر لم ينشق في ذلك الوقت وكان مراده سينشق فيما بعد، فما معنى قوله:] وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ [بعقب هذا الكلام.

أليس فيه دليل على أنّ قوماً رأوه منشقاً فقالوا: هذا سحر مستمر من سحره وحيلة من حيله، كما قد كانوا يقولون في غير ذلك من أعلامه ؟ وكيف صارت الآية من آيات النبي (صلى الله عليه وآله) والعَلَم من أعلامه، لا يجوز عنده أن يراها الواحد والإثنان والنفر دون الجميع ؟

أوليس قد يجوز أن يخبر الواحد والإثنان والنفر والجميع، كما أخبر مكلّم الذئب بأنّ ذئباً كلّمه(٣٤)، وأخبر آخر أنّ بعيراً شكا إليه (٣٥)، وأخبر آخر أنّ مقبوراً لفظته الأرض(٣٦) ؟

وقد عقد السيوطي في كتابه الخصائص الكبرى(٣٧) باباً خاصاً في ذلك وسمّاه:)باب انشقاق القمر) وذكر فيه عدّة أحاديث نقلاً عن الشيخين في الصحيحين والبيهقي وغيرهم، رواها ابن مسعود وابن عباس وابن عمرو جبير بن مطعم وأنس، وهؤلاء الصحابة فيهم من حضر وشاهد فروى ما قد رأى كابن مسعود وجبير بن مطعم، ومنهم من لم يشاهد إلّا أنّه روى عمّن رأى كابن عباس وابن عمر وأنس، وحديث أنس أخرجه الشيخان فقال: إنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى

الله عليه وآله) أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين، وهذا حديث متفق عليه عند من يحتج بالصحيحين .

كما أنّ حديث ابن مسعود المروي في الصحيحين أيضاً قال: انشق القمر بمكة على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) شقتين، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): (إشهدوا) ففي حديث أنس أنّ أهل مكة سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يريهم آية فأراهم، وفي حديث ابن مسعود ما يصدّقه حيث جاء في آخره فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): (إشهدوا) فإذا لم يكن ثمّة طلب، ولم يكن ثمة تحدّ، على ماذا قال(صلى الله عليه وآله): (إشهدوا) ويؤيّد ذلك أيضاً ما قاله السيوطي بعد ذكره أحاديث الصحابة في ذلك فقال:

قال العلماء: انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنّه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركّب من الطبائع، فليس ممّا يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر.

الهوامش

- 1النحل: ٤٤.

- 2قال محمد حسين الذهبي: فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلاّ النزر اليسير: التفسير والمفسّرون ١: ٦٣ ط مصر سنة ١٣٨١ هجـ.

- 3تفسير التبيان ٩: ٤٤٣ ط النجف الأشرف.

- 4لقد ذكر الملا علي القاري في شرح الشفا بهامش نسيم الرياض ٣: ٨ فقال: وقد نقل الحافظ المزي عن ابن تيمية أنّ بعض المسافرين ذكر أنّه وجد في بلاد الهند بناءً قديماً مكتوباً عليه بني ليلة انشق القمر.

- 5جامع البيان ٢٧: ٨٤ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

- 6التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٩: ٢٨ ط الأولى، التزام عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر بمصر.

- 7الجامع لأحكام القرآن ١٧: ١٢٥.

- 8الدر المنثور ٦: ١٣٣ ط أفست إسلامية.

- 9التسهيل لعلوم التنزيل ٤: ٧٩.

- 10أي ليلة أربع عشرة من الشهر، وهي ليلة تمام البدر وكماله.

- 11تفسير الميزان ١٩: ٥٩ نشر جماعة المدرسين في قم.

- 12القمر :١ – ٢.

- 13تفسير الجواهر ٢٣: ٢٦٥ – ٢٦٦ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ٢٠٠٤ م .

- 14تفسير المراغي ٢٧: ٧٦ – ٧٧ .

- 15في ظلال القرآن ٢٧: ٨٣ ط الأولى بمصر .

- 16التفسير الواضح ٢٧: ٣٣ – ٣٤ ط الثانية دار الكتاب العربي بمصر .

- 17راجع بشأن هذه الأحاديث موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٨: ٤١٨ – ٤١٩ ط عالم التراث بيروت .

- 18شرح الشفاء ٣ : ٦ بهامش نسيم الرياض للخفاجي .

- 19مسند أحمد ١: ٤١٣ – ٤٤٧ .

- 20تاريخ بغداد ١٣: ٩٥ .

- 21تاريخ دمشق ٤: ٣٧٥ ط دار الفكر .

- 22أخبار مكة ٤: ٩٦ ط دار خضر بيروت سنة ١٤١٤ هجـ .

- 23الاستيعاب ١: ٣٢٣ تحـ البجاوي .

- 24تاريخ دمشق ١٢: ٢٨٧.

- 25فتح الباري ٢: ٥٩ ط مصطفى البابي الحلبي بمصر .

- 26تفسير الفخر الرازي ١٩: ١٣٢ .

- 27دلائل النبوة ٢: ٤١ . والحديث في مسند الشاميين للطبراني ١٠/٤ برقم ٥٨١ ط الرسالة بيروت وفيه: في قراءة حذيفة (قد انشق القمر.(

- 28تحفة الاحوذي ٦: ٤١٠ ط ٢ الفجالة بمصر سنة 1385هجـ .

- 29نفس المصدر: ٤١٢ .

- 30نفس المصدر: ٤١١ .

- 31نفس المصدر: ٤١١.

- 32نفس المصدر: ٤١٢.

- 33سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٩: ٤٣١ ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤١٤ هـ .

- 34الخصائص الكبرى للسيوطي ٢: ٢٦٧.

- 35المصدر نفسه ٢: ٢٥٧.

- 36المصدر نفسه ٢: ٣١٢.

- 37المصدر نفسه ١: ٣١٢ - ٣١٣.